

جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
لبنات بالأسكندرية

علم الكلام

نشأته - تطوره - موقف العلماء منه قديماً وحديثاً

دكتورة

منى إبراهيم أبوشادى

دار المعرفة الأزهرية

ت: ٣١٥٣٤٤٤ الإسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له
الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة
وذلك دين القيمة ﴾

الآية (٥) من سورة البينة

صدق الله المخبر

تقديم :

الحمد لله الواحد الأحد . الفرد الصمد . الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له
كفوا أحد . والصلاة والسلام على سيد أنبيائه وخاتم رسله سيدنا محمد - صلى
الله عليه وسلم - وعلى آله وأصحابه وأتباعه الموحدين إلى أن يقوم الناس لرب
العالمين .

وبعد ..

فإن العقائد الإيمانية تجمعها جميعا إجابة رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - عندما أجاب عن سؤال جبريل - عليه السلام - ما الإيمان ؟ فقال :
- عليه الصلاة والسلام - : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم والآخر
وتؤمن بالقدر خيره وشره " .^(١)

وهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما أجاب به عن جبريل
- عليه السلام - إذ إن كل ما ذكره هو أركان العقيدة وأساس الإيمان فإذا
ما استقرت هذه الأمور في القلوب وتمكنت من النفوس استقرت ملكة الإيمان في
النفس وامتنت النفس عن مخالفة أوامر الله - سبحانه - أو اقتراف نواهيه
المتعلقة في عبادته - سبحانه وتعالى - التي لم يخلق الجن والإنس إلا لها مصداقا
لقوله - عز وجل - : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .^(٢)

ولقد جاء علم التوحيد ليتكفل بالدفاع عن هذه العقائد الإيمانية بالأدلة

(١) الحديث بتمامه في صحيح مسلم ٣٧/١ كتاب الإيمان .
(٢) الآية (٥٦) من سورة الذاريات .

العقلية راداً على هؤلاء المبتدعة المنحرفين عن الجادة حتى يتحقق قوله - جل وعلا - : ﴿ وَإِنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ ﴾ (١).

ويتحقق أيضاً وعد الله - سبحانه وتعالى - للمؤمنين المرحمين والذي جاء على لسان رسوله الأمين - صلى الله عليه وسلم - : " من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار " (٢). لأن من شهد أن لا إله إلا الله تحصل له ملكة راسخة في النفس يترتب عليها علم ضروري وهو التوحيد المطلق في العقائد الإيمانية التي تحصل بها السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة . لأنه بهذه الملكة تتحقق الطاعة والانقياد وحييا مطيعاً لربه . عابداً إياه في كل شئون حياته متمثلاً طاعته في كل ما يأخذ وما يدع .

مع ما تقدم مما يبين أهمية علم الكلام ، فإنه قد وجد من العلماء الذين في العصر الحديث - أي في نهاية النصف الثاني من القرن العشرين على وجه التحديد - من يقلل من أهميته . ويرى أنه لم يعد يفي بمتطلبات الإنسان المعاصر ، وأنه فشل في أداء مهمته . كما أنه كان سبباً في فشل الأمة وجعلها أحزاباً وشيعاً . ومن ثم رفض هذا العلم وامتد رفضه إلى كل ما يتصل به من أسسه وتعاريفه وموضوعه ومرتبته وأهم من ذلك كله أنكر فائدته وفكرته إلى غير ذلك من الأمور ولم يترك شيئاً يتعلق به إلا ونقده ، وليته وقف عند هذا الحد بل مدسه كي يصل في نهاية الأمر إلى وضع بديل له .

(١) جزء الآية (١٥٣) من سورة الأنعام .
(٢) صحيح مسلم ٥٥/١ كتاب الإيمان .

لذلك فقد استخمرت الله - سبحانه وتعالى - فأخارنى واستعنت به فى
الكتابة عن هذا العلم الجليل الشأن الرفيع القدر تحت عنوان :

علم الكلام

" نشأته - تطوره - موقف العلماء منه قديما وحديثا "

وقد قسمته إلى خمسة مباحث :

المبحث الأول : مبادئ علم الكلام ، وقد اشتمل على أسماء العلم ومعناه
فى اللغة والاصطلاح ثم موضوع العلم وصلته بالعلوم
الأخرى والثمرة أو الغاية منه بالإضافة إلى حكم
الاشتغال به .

المبحث الثانى : نشأة علم الكلام وتطوره والعوامل التى أثرت فى ذلك .
المبحث الثالث : موقف علماء الأمة من علم الكلام قديما . وقد تضمن
هذا موقف الفقهاء والمحدثين والمتكلمين من علم الكلام
من القدامى .

المبحث الرابع : موقف بعض العلماء من علم الكلام حديثا . وقد تناولت
فيه موقف كل من الدكتور عبد الحليم محمود ، والشيوخ
محمد الغزالي - رحمهما الله - من علم الكلام .

المبحث الخامس : أهمية علم الكلام فى العصر الحديث .
والله أسأل أن يعصمنى من الزلل فى القول والعمل . وأن يوفقنى فيما
انتدبت نفسى له ، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم .
منى إبراهيم أبو شادى

المبحث الأول

مبادئ علم الكلام

المبحث الأول مبادئ علم الحلال

أسماء هذا العلم

جرت عادة سلفنا من العلماء عند الحديث عن أى علم أن يقدموا له بالمبادئ العشرة* لكى يكون الطالب على بصيرة من أمره . ومنها التعريف باسم العلم أو أسمائه المتعددة التى اشتهر بها . وذلك نظرا للعناية التى أولاها العلماء له ترغيبا فى دراسته . وحثا على استيعابه . هذا بالإضافة إلى حده وتعريفه . وبيان موضوعه الذى يدور حوله البحث . والغاية من دراسته . إلى غير ذلك من الأمور .

وقبل الحديث عن المقدمات أو المبادئ الخاصة بالعلم يحسن بنا أن نذكر فى هذا المقام أن ثمة فرقا بين الإسلام والفكر الإسلامى .

فالإسلام :- دين الله - عز وجل - المنزل على خاتم أنبيائه ورسوله سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ومصدر الإسلام هو الكتاب والسنة النبوية المطهرة .

أما الفكر الإسلامى فهو العمل العقلى للمسلمين فى فهم ما ورد بالكتاب والسنة النبوية المطهرة . وما يترتب على ذلك من اجتهادات فى فهم النص واستنباط الحكم . ومن ثم فقد نتج عن الاجتهادات فى فهم النص ما يسمى لدى العلماء بـ " المصادر التيمية " ويقصد بها الإجماع والقياس والاستحسان وغير ذلك

* أورد البيهقى فى كتابه تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ١٤ هذا النظم :

الصد والمفهوم ثم الثمرة
والاسم الاستمداد حكم الفاعل
ومن يرى الجميع حاز الغرنا

إن مبادئ كل فن عشرة
ولمضله ونسبته والواضع
مسائل واليهض باليهض اكتفى

من مصادر الفقه الإسلامى ، وهى مصادر قامت على الاجتهاد فى فهم النص
الموحى به من قبل الله تعالى كتابا أو سنة .

من هذا يتبين لنا أن ما جاء به النص المعصوم سواء كان كتابا أو سنة
يعتبر من ثوابت الدين التى لا يحل الاختلاف عليها . ومن ثم فهى لا تدخل فى
نطاق ما يسمى بـ " الفكر الإسلامى " ولا " الثقافة الإسلامية " وبالتالي لا يحل
فيها الاجتهاد .

من هنا يتضح أن الخلاف حول علماء الكلام فى أصول الدين إنما نشأ فى
مسائل جاءت أكثرها المتشابهة . وكذلك الخلاف بين الفقهاء فى قضايا العمليات
جاءت حول مسائل ليس فيها نص من كتاب أو سنة .

ويتحصل من ذلك كله أن علم الكلام يدور فى إطار قضايا لا تصانم - فى
جملتها - النصوص الصريحة أو المصححة من الكتاب والسنة . ومن هنا جاز
حولها الاختلاف .

هذا ومن الفكر الإسلامى علم الكلام الذى يختص بقضايا الإيمان . ولقد مر
هذا العلم فى تطوره بمرحلتين :

الأولى : اتسمت بنظام موحد من الاعتقاد مأخوذ من تعاليم القرآن الكريم
والسنة النبوية المطهرة . وقد سار على هذا النهج صحابة رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - ومن أتى بعدهم وهم التابعون وأطلق على هذه الطائفة اسم السلف .
الثانية : تمثلت فى ظهور البدع المختلفة القائمة على الجدل بفرض إشعال
الخصومة والفرقة بين المسلمين . وقد كان للمتكلمين دور بارز فى الدفاع عن الدين
لمواجهة أصحاب النزعات المنحرفة .

هذا ، وقد أطلق على علم الكلام أسماء كثيرة نشير هنا إلى أهمها

فمن ذلك :

١ - علم التوحيد والصفات .

٢ - علم أصول الدين .

٣ - علم الكلام .

٤ - علم الفقه الأكبر .

٥ - علم النظر والاستدلال .

٦ - علم العقيدة .

ولا شك في أن مسمى هذه الأسماء واحد عند كل العلماء ، إلا أن لكل وجهة نظر في إيثار أحد هذه الأسماء على غيرها .

١ - علم التوحيد والصفات :

فالذين أطلقوا هذه التسمية على هذا العلم لاحظوا أن مبحث "الوحدانية" هو أشهر وأجل مباحث هذا العلم ، ولما كان الأمر كذلك فقد جعلوا عنوانه علما على العلم كله تسمية للعلم بأشهر مباحثه باعتباره أنه يبحث في المعجج التي تثبت وحدانية الله - تعالى - ثم ما يجب لله وما يجوز وما يستحيل في حقه - جل شأنه - (١).

فهو - إذن - سمي " علم التوحيد " نسبة إلى بعض موضوعاته ، من باب تسمية الكل بأشرف ما فيه من أجزاء . والمشتغلون بهذا العلم يسمون تارة بالمتكلمين وتارة بعلماء التوحيد .

(١) انظر : رسالة التوحيد ص ٨ .

رأى أن سميت الصفات إلى التوحيد في التسمية ، لأنه يبحث فيما يجب
وما يستحيل وما يجوز في حق الله - تعالى - من صفات .

٢ - علم أصول الدين :

سمى بذلك : لأن مباحثه تدور حول العقائد وهي أصل لغيرها من الأحكام
الشرعية فمعرفة الله وصفاته وما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقه - تعالى - ،
ومعرفة الرسل - عليهم السلام - وما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقهم ،
ومعرفة اليوم الآخر وما يتصل به من ثواب وعقاب كل هذه أصول وأساس لهذا
الدين .

ومن هنا علا قدره وشرف فضله على علمي الأصول والفقه ، لأن العقيدة
أصل . والأحكام الشرعية التي هي موضوع أصول الفقه والفقه فرع .

٣ - علم الكلام :

لقد اختلفت الآراء وتباينت حول علة تسمية علم الكلام بهذا الاسم . وإليك
ما قيل بهذا الصدد :

أ - سمي بذلك تسمية لكل باسم الجزء . حيث إن مسألة كلام الله - تعالى - وهل
هو حادث أو قديم ؟ قد أثير حولها جدل ونزاع كبير بين الفرق الكلامية .
ولا يزال يذكر لنا التاريخ ما أثاره المعتزلة حول هذه الصفة وكم تسببت هذه
المسألة في محنة كثير من العلماء بسبب اختلاف وجهات النظر حولها .

ب - أنه سمي بذلك نظرا : لأن المتقدمين كانوا يبدأون كلامهم عند تناول مباحثه
بقولهم : الكلام في الوجدانية ، الكلام في الصفات ، الكلام في الرؤية وهكذا .

فى بقية مباحثه ومسائله . فمرد التسمية يرجع إلى المذهب الإسلامية التى
كانوا يعنونون لها بالكلام فى كذا .

ج - أن هذا العلم يورث القدرة على الكلام والتشويق فى حروف الأدلة والبراهين
الشرعية فى الأمور العقبية مع الآخرين .

وفى هذا الإطار جمع صاحب المواقف هذه الأقوال فقال : " إنما سمي
كلاماً إما لأنه بإزاء المنطق للفلسفة ، أو لأن أبوابه عنونت أولاً بالكلام فى كذا ، أو
لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثرت فيه التناحر والسفك فلفي عليه ، أو لأنه
يورث قدرة على الكلام فى الشرعيات ومع الخصم " (١)

د - أن علم الكلام مبنى على الأدلة العقلية المؤيدة فى كثير من الأحيان بالأدلة
النقلية التى هى أحد الأدلة تأثيراً فى القلب وتغلغلاً فيه ، فسمى بالكلام
المشتق من الكلم وهو الجرح (٢)

هـ - أنه سمي بعلم الكلام تنويهاً بذكره وتقديراً له وحثاً على تعليمه مبكراً مع تعلم
الإنسان الكلام أى أنه العلم الذى ينبغى أن يلحق للطفل مع تلقينه الكلام لحاجة
الإنسان إليه فى حفظ أصول دينه وصورته ، أو لأنه لقوة أدلته وبيان حجته
صار كآفته وحده الكلام وما عداه ليس بكلام - كآفته تقول لمخاطبك قوى الحجة
واضح البيان كلامك هذا هو الكلام وكأن ما عداه ليس بكلام (٣)

و - سمي بذلك باعتبار ما يتحقق به ، وذلك لأن مسأله أيضاً تتحقق بالمباحثة
وإدارة الكلام من الجانبين بخلاف غيره من العلوم فإنه يتحقق بالتأمل ومطالعة

(١) الإيجى ص ٨ وما بعدها .

(٢) انظر : توضيح المقائد النسفية ٧/٨ شرح وتحليل د/ سليمان خميس .

(٣) انظر : العقيدة الإسلامية للفكر عبد السلام عبيد ص ٤٦ .

الكتب ، ولأنه أكثر من غيره خلافا ونزاهة فهو مفتقر إلى الكلام أكثر من غيره للرد على المخالفين (١).

ويذكر الدكتور مصطفى عبد الرزاق السبب في تعليل إطلاق هذا الاسم (علم الكلام) على هذا العلم الذي نحن بصدده فيقول : " ويبدو لي أن البحث في أمور العقائد كان يسمى كلاما قبل تدوين هذا العلم ، وكان يسمى أهل هذا البحث متكلمين . فلما دونت النواوين وألفت الكتب في هذه المسائل ، أطلق على هذا العلم المدون ما كان لقبها لهذه الأبحاث قبل تدوينها علما على المتعرضين لها " (٢).

ز - ولقد أضاف ابن خلدون تفسيراً آخر لتسمية علم الكلام بهذا الاسم نظراً لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست براجعة إلى عمل (٣)

٤ - علم الفقه الأكبر :

سمى بذلك ؛ لأنه يبحث في المسائل الأصولية أي الإلهيات والنبويات والسمعيات وهذا في مقابل العلم الباحث في الأحكام الشرعية الفرعية المسمى بالفقه .

قال الإمام أبو حنيفة - رضى الله عنه - : " الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم ؛ لأن الفقه في الدين أصل والفقه في العلم فرع . وفصل الأصل على الفرع معلوم قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (٤) . ولا شك أن العبد أولاً يلزمه الإسلام لقوله - تعالى - : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا

(١) انظر : توضيح العقائد النسفية ٧/١ .

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٦٥ .

(٣) المقدمة ص ٤٢٩ .

(٤) جزء الآية (١٩) من سورة آل عمران .

ليعيدون﴾^(١) أى ليوحّدوا ثم العلم يبنى على الدين . فصار الدين هو التوحيد .
والعلم هو الديانة يعنى الشرائع وهو بعد التوحيد ثم الدين عقد على الصواب .
والديانة سيرة على الصواب .^(٢)

• - علم النظر والاستدلال .

سمى بذلك : لأنه يعتمد على النظر العقلى فى أمر العقائد .^(٣)

٦ - علم العقيدة :

سمى هذا العلم بهذا الاسم باعتبار الثمرة والغاية المرجوة من دراسته وهى
انعقاد القلب انقيادا جازما لا يقبل الانفكاك بناء على وضوح البراهين القطعية على
موضوع الاعتقاد .

وقد أشار إلى ذلك صاحب المقاصد حيث قال : " تجلية الإيمان
بالإيقان " ^(٤) فى حق كل من لديه استعداد لذلك .

تعليق على هذه الأسماء :

سبق أن أشرت إلى أن جميع هذه الأسماء تدور فى فلك مسمى واحد عند
جميع أصحاب هذه الاطلاقات . وإن كان لى أن أختار أحدهما أو أن أؤثر أحدهما
على الآخر فإننى أرى أن أدق اسم يمكن أن يطلق على هذا الفن أو هذا العلم هو
" علم أصول الدين " وذلك لشموله وعمومه إذ أنه والحالة هذه يكون شاملا لكل
المباحث التى يتناولها هذا العلم والتى هى أصل لغيرها من الأحكام الشرعية . ومن
ثم علا قدره على علمى الفقه والأصول كما سبق أن أشرت .

(١) الآية [٥٦] من سورة الذاريات .

(٢) اللقمة الأكبر المنسوب إلى أبى حنيفة نقلا عن : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٦٨ .

(٣) انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ٢٢/١ .

(٤) التفتازانى ١٧٥/١ .

المعنى اللغوى لعلم التوحيد :

كلمة التوحيد مصدر للفعل الرباعى وحَدَّ بتشديد الحاء المفتوحة يقال : وحَدَّ يوحَدُّ توحيداً كعلم يعلم تعليماً وكرم يكرم تكريماً وهكذا ومعناها جعل الشئ واحداً . يقال : وحَدَّوا صفوفكم أى اجعلوها كالصف الواحد . كما يقال : وحَدَّوا كلمتكم أى اجعلوها واحدة وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ (١).

وبناء على هذا يكون التوحيد هو : الإيمان بالله وحده لا شريك له (٢).

ومما تجب الإشارة إليه أن هناك فرقاً بين كلمتى الواحد التى وصف الله - تعالى - بها ذاته فى قوله - عز وجل - : ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ (٣).

وكلمة الأحد التى وصَفَ الله - تعالى - بها ذاته فى قوله - عز وجل - : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ (٤).

إذ إن كلمة " الواحد " أول عدد الحساب أى الأرقام الحسابية تقول : جاءنى واحد من الناس أو اثنان أو ثلاثة منهم وهكذا . أما كلمة " الأحد " فالمقصود بها نفى ما يذكر مع الواحد من العدد ومن ثم تقول : " ما جاءنى

(١) جزء الآية (٦٤) من سورة آل عمران .
(٢) لسان العرب لابن منظور ٤٧٨١/٨ .
(٣) الآية (١٦) من سورة غافر .
(٤) الآية (١) من سورة الإخلاص .

أحد - ولا تقول - جاءني أحد - فالواحد منفرد بذاته في عدم النظير والمثيل .
والأحد منفرد بمعناه ولا يمكن أن يُجمع بين هذين الوصفين - الواحد الأحد - إلا
لله - سبحانه وتعالى - .

فإذا قيل : - الله الواحد - يكون المعنى : الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن
معه آخر .

وإذا قيل - الله أحد - يكون المعنى أنه لا يوصف شيء بالأحادية غيره .^(١)

(١) لسان العرب لابن منظور ٤٧٨٢/١ .

المعنى الاصطلاحي لعلم الكلام :

لقد عرف الباحثون علم الكلام بتعريفات شتى اختلفت تبعاً لاختلاف وجهة نظرهم حول هذا العلم .

وسوف نورد بعضاً مما ذكر من هذه التعريفات التي تعبر عن مختلف الاتجاهات في تعريف هذا العلم .

التعريف الأول :

قال الفزالي وهو بصدد تعريف علم الكلام : " إنى ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصانفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودي ، وإنما مقصوده " حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البعة " (١)

فالفرض من علم الكلام هو حراسة العقيدة الصحيحة وهي عقيدة أهل السنة .

التعريف الثاني :

عرف ابن خلدون علم الكلام بتعريف لا يختلف كثيراً عن تعريف الفزالي السابق ذكره فقد عرفه بأنه : " علم يتضمن الحجاج عن المقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة " (٢)

(١) المنقذ من الضلال ص ٩٦ .

(٢) المقدمة ص ٤٢٣ .

التعريف الثالث :

يرى القاضى عضد الدين الإيجى أن علم الكلام هو : " علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه ، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ، وبالبينية المنسوبة إلى دين محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن الخصم وإن خطأه لا نخرجه من علماء الكلام " (١).

وهذا التعريف الذى ذكره الإيجى لا يختلف كثيرا عن سابقه .

التعريف الرابع :

عرف سعد الدين التفتازانى علم الكلام بأنه : " العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية ... ويتميز عن الإلهى بكون البحث فيه على قانون الإسلام ، أى ما علم قطعا من الدين ، كصعود الكثرة عن الواحد ، ونزول الملك من السماء ، وكون العالم مخفوقا بالعدم والفناء إلى غير ذلك مما تجزم به الله دون الفلسفة " (٢).

التعريف الخامس :

لمحمد عبده حيث عرفه بقوله : " التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله ، وما يجب أن يثبت له من صفاته ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم " (٣).

يلاحظ هنا أن محمداً عبده أثر تعريف علم الكلام بعلم التوحيد حتى أنه سمي كتابه بـ " رسالة التوحيد " .

(١) المواقف، ص ٧

(٢) المقاصد ١/ ١٦٣ ، ١٦٦ .

(٣) رسالة التوحيد، ص ٨ .

التعريف السادس :

ما صرح به إبراهيم البيجورى بقوله هو : " علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية مكتسب من أدلتها اليقينية " (١)

التعريف السابع :

ما ذكره التهانوى حيث قال : " وهو (أى علم الكلام) علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه ... وفى اختيار إثبات العقائد على تحصيلها إشعار بأن ثمرة الكلام إثباتها على الغير ، وبأن العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع ليعتد بها وإن كانت مما يستقل العقل فيه " (٢)

يوضح التهانوى من خلال هذا النص أن العقائد تؤخذ من الشرع وإن كانت مما يستقل العقل به وهذا هو ما يميز علم الكلام عن الفلسفة .

التعريف الثامن :

لقد عرف طاش كبرى زادة علم الكلام بتعريف لا يختلف عن تعريف التهانوى له حيث قال : " علم يقتدر معه على إثبات الحقائق الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه عنها ... ويشترط فى الكلام أن يكون القصد فيه تأييد الشرع بالعقل ، وأن تكون العقيدة مما وردت فى الكتاب والسنة ، ولو فات أحد هذين الشرطين لا يسمى كلاماً أصلاً (٣)

التعريف التاسع :

ما ورد عن بعض الباحثين أن التوحيد يطلق بإطلاقين :

(١) تحفة المرید على جوهرة التوحيد ص ١٩ .

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون ٢٢/١ .

(٣) مفتاح السعادة ١٥٠/٢ .

أولا : المعنى الشرعى الذى جاء به الإسلام وقرؤه القرآن الكريم فى كثير من
سوره وآياته أعنى أفراد المعبود بالعبادة * مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا .
ثانيا : بالمعنى الاصطلاحى المنون : وهو العلم الذى يقتصر معه على إثبات
المقائد الدينية بإبراه الصحيح ورفع الشبه . أى هو العلم الباحث فيما يجب لله وما
يستحيل وما يجوز والتسميعات .^(١)

التعريف العاشر :

لابى نصر الفارابى حيث عرفه بقوله : " صناعة الكلام ملكة يفكر بها

* لقد كثر الحديث لدى علماء الكلام عن التوحيد الاعتقادى مع إقبال الحديث عن التوحيد
العملى . وهذا قد يترتب عليه شيوع فكرة خاطئة عند الناس مؤابها أن يقتضى فى التوحيد
اعتقاد أن الله واحد . وإن لم يوحىوا توحيدا عمليا . ولا شك فى أن هذا أسهم فى تدمير
أحوال المسلمين سلوكيا وجماعيا غرباء فى الإسلام يرتكون زيه ولا يعرفون منه إلا شكك
فأصبحوا أعاجم أمام تعليماته وما جاء به .
وإبيان بطلان هذه الفكرة الخاطئة يجب أن نلث النظر إلى أن مفكرى العرب كانوا موحدين
توحيدا اعتقاديا واكتفوا بهذا الاعتقاد دون ممارسته عمليا وسلوكيا وتعبديا . ومع هذا لم
ينقذهم توحيدهم من عذاب الله فى الدنيا ولا فى الآخرة .
وقد عرض القرآن الكريم لمثل هذه الأمور فى آيات كثيرة بين فيها أن العرب يمتدنون فى وجود
الإله ولكنهم يحبذون الوساطة فى القرى إليه . دون سعى إلى التوحيد الخالص فى الاعتقاد
والسلوك .
قال - تعالى - : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ جزء الآية (٨٧) من سورة
الزخرف وقوله - عز وجل - : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن
خلقهن العزيز العليم ﴾ الآية (٩) من سورة الزخرف .
وقد أشار القرآن الكريم إلى أن حياتهم لغير الله كانت دعاء كفاء السيل لا فائدة فيه .
قال - جل شانه - : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد قائلكم فادعهم
فليس تجيبوا لكم إن كنتم صادقين ﴾ الآية (١٩٤) من سورة الأعراف .
وقول - عز من قائل - : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من
دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه
ضعف مطالب ولطوب ﴾ الآية (٧٣) من سورة الحج .
من كل هذا نخلص إلى أن الإيمان قول واعتقاد وعمل فإذا لم يتم بهذه الأركان لم يكمل
التوحيد ولا يتم الاعتقاد الصحيح .
^(٢) انظر : توضيح المقائد النسفية ٨/٨ .

الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها وأضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالافتقار^(١) .

تعليق :

من خلال التعريفات المتعددة لعلم الكلام لدى العلماء نجد أنها جميعها تنور حول محورين اثنين لا ثالث لهما هما :

١ - أن مهمة علم الكلام توضيح العقائد الدينية والدفاع عنها *

٢ - قصر مهمة علم الكلام على الناحية الدفاعية ** عن العقائد الدينية باستخدام العقل سواء أكان ذلك في مواجهة المبتدعة الضالين أعداء الدين الذين يتريصون به الدوائر أم في مواجهة شبهات ووساوس المترددين .

يقول الدكتور عبد الهادي أبو ريدة في هذا الإطار : " ولنلاحظ أن هذه التعريفات - أي تعريفات علم الكلام - تبين طبيعة العلم وأنه علم ^{عقلاني} ، ووظيفته إيجابية من ناحية إثبات العقائد بقدرة العقل ، وهي وظيفة نقدية أيضا ؛ لأنها تتحدى الاعتقادات الباطلة سواء في داخل الفكر الإسلامي أو في خارجه عند الفلاسفة والعلماء ، الذين لا يقرنون بوجود الله ، وكذلك عند أهل المذاهب الدينية الأخرى .^(٢)

وإذا ما نظرنا إلى هذه التعريفات - تعريفات علم الكلام - نظرة فاحصة

(١) إحصاء العلوم ص ١٠٧ وما بعدها تحقيق د/ عثمان أمين .

* كتحريف الإيجي والتفتازاني والبيجوري والتهانوي وطاش كبرى زادة .

** كتحريف ابن خلدون .

(٢) خطة مقترحة لتجديد علم الكلام ص ١٨ بحث مقدم للندوة السنوية للجمعية الفلسفية المصرية المنعقدة بالقاهرة عام ١٩٩١م تحت عنوان " نحو علم كلام جديد " .

متأنية نجد أن تعريف الغزالي وابن خلدون غائبان أى من قبيل تعريف الشئ
بالغاية والهدف منه . بينما نجد أن تعريف الإيجى متفق مع ما ذهب إليه
ابن خلدون فى أن العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع حتى يعتد بها . كل ما هناك
أن ابن خلدون يجعل علم الكلام أداة لعقائد السلف وأهل السنة . أما تعريف
الإيجى فإنه يخرج من هذا الإطار الضيق ويتوسع حيث يجعل علم الكلام أداة
دفاع لكل معتقد عن عقيدته فدفاع المبتدع عن عقيدته بالبراهين العقلية يعتبر كلاما
أيضا عنده لقوله - أى - الإيجى - : " فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من
علماء الكلام " .

أما سعد الدين التفتازانى فإن تعريفه يخالف تعريف الإيجى حيث خص علم
الكلام بالكلام القائم على قانون الإسلام أى ما علم من الدين قطعا حتى يتميز عن
العلم الإلهى عند الفلاسفة .

وأخيرا فإننى أرى من وجهة نظرى الخاصة أن تعريف محمد عبده يكاد
يكون منطقيا تمام الانطباق على المعرف وهو " علم التوحيد " أو " علم الكلام " لأنه
يوضح هدف العلم وغايته وموضوعه فى نفس الوقت . كما أنه عام لكل المناهج التى
استخدمت فى هذا الصدد حيث لم يقصر قانون البحث فيه على مذهب بعينه .

ويمكن أيضا اختيار تعريف ابن خلدون لعلم الكلام باعتبار أنه يمثل المرحلة
الأولى من نشأة هذا العلم قبل اختلاطه بالفلسفة . كما أنه يعبر عن رأى الأغلبية
ممن يشتغلون بهذا العلم . فهو فى نظره علم يدافع عن العقائد الإيمانية بالأدلة
العقلية ضد المبتدعة المنحرفين . ولا شك فى أن هذا هدف ليس بعده هدف .

وجملة القول أن المتكلمين يتفقون على أن علم الكلام يعتمد على النظر العقلى
فى أمر العقائد الدينية ويختلفون فى أنه :

١ - يثبت العقائد الدينية بالبراهين العقلية كما يدافع عنها .

٢ - يدفع الشبه عن العقائد الإيمانية الثابتة بالكتاب والسنة .

ومنشأ الخلاف : أن العقائد الإيمانية ثابتة بالشرع ، وإنما يفهمها العقل عن الشرع . ويلتمس بعد ذلك البراهين النظرية ، أو هي ثابتة بالعقل على معنى أن النصوص الدينية قررت العقائد الدينية بأدلتها العقلية .^(١)

(١) انظر : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للكثير مصطفى عبد الرزاق ص ٢٦٢ وما بعدها .

موضوعه :

لاشك في أن العلوم تتمايز بتمايز موضوعاتها هذا التمايز يملأ العلم ما هو جدير من العناية والاهتمام وقد كان علم الكلام من هذا النوع .

يقول الشريف الجرجاني : " موضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية كبدن الإنسان لعلم الطب فإنه يبحث فيه عن أحواله من حيث الصحة والمرض ، وكالكلمات لعلم النحو فإنه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الإعراب والبناء .^(١)

وعلى هذا فعلم الكلام هو العلم الذي يبحث في أصول العقيدة الإيمانية مؤيداً لها ودافعاً الشبه عنها بالحجة والبرهان كما تبين من قبل عند تعريف هذا العلم .

كما قال علماء الكلام بأنه العلم الذي يبحث فيه عن دقيق الكلام وجليله * .
والعلماء إزاء تحديد موضوع هذا العلم لهم اتجاهان :

الأول : اتجاه يقرر موضوعه من خلال أصول الدين فيرى أنه :

ذات الله - تعالى - من حيث ما يجب له وما يستحيل وما يجوز ، والرسول كذلك من حيث ما يجب لهم وما يستحيل وما يجوز في حقهم - عليهم السلام - ، والسمعيات كاللغة والحشر والحساب ... الخ .

(١) التعريفات باب الميم ص ٢٣٦ .
* جليل الكلام : أي الموضوعات الأساسية والذاتية لهذا العلم ويرجع فيه إلى كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - .
دقيق الكلام : يقصد به المقدمات العقلية التي توقف الباحث على إثبات العقائد والتدليل عليها .
انظر : المواقف للإيجي ٥٦/١ .

وموضوع العلم عند أصحاب هذا الاتجاه لا يخرج عما ورد في الحديث الشريف عن موضوع الإيمان في الحديث الجامع حيث قال : " الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره " (١).

الثانى : اتجاه يقر أصحابه أن موضوع علم الكلام أوسع وأشمل من أن يحصر في الموضوعات السابقة ، وذلك لأن هناك الكثير من المباحث قد تبو غير وثيقة الصلة بدراسة علم الكلام . ولكن التحقيق أثبت أنها لازمة وضرورية في دراسة هذا العلم مثل دراسة أحوال المكتبات التى يتوصل بها إلى ضرورة الإيمان بوجوب واجب الوجود .. الخ .

وفى هذا نعرض ما قاله صاحب المواقف فى بيان موضوع هذا العلم حيث قال هو : " المعلوم من حيث إنه يتطرق به إثبات العقائد الدينية تنفقا قريبا أو بعيدا " ثم يبين العلة فى ذلك فيقول إن : " مسائل هذا العلم إما عقائد دينية كإثبات القدم والوحدة للصانع ، وإثبات حدوث وصحة الإعادة للأجسام ، ... الخ ... تتوقف عليها تلك العقائد ، كتركيب الأجسام من الجواهر الفردة ، وجواز الخلاه ، وكانتفا الحال وعدم تمايز المعلومات المحتاج إليهما فى اعتقاد كون صفاته - تعالى - متعددة موجودة فى ذاته " (٢).

تعليق :

إذا أردنا أن نقارن بين الاتجاهين لنعرف أيهما أولى : القبول والاعتبار وجدنا أن الاتجاه الأول يكفى موضوعا لطلاب العقيدة من الطريق القريب المباشر حيث إنهم يقفون أمام موضوعاتها وجهها لوجه .

(١) الحديث بتمامه فى صحيح مسلم ٣٧/١ كتاب الإيمان .
(٢) المواقف ٤٠/١ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٣٢/١ .

أما الاتجاه الثانى : فهو لازم لمن يريد الدراسة الدقيقة المتعمقة . نظرا لأن موضوع هذا العلم لدى أصحاب هذا الاتجاه قد تضخم وأصبح شاملا لأشياء كثيرة : لأن المعلوم الذى يتوقف على دراسته ومعرفته إثبات المقائد ، لاشك فى أن موضوعه سيكون متسعا وشاملا : لأن دراسة طبائع المكنات لمعرفة أصولها وخصائص كل منها للوصول إلى القوة المؤثرة فيها هو من لوازم دراسة علم الكلام ، وكان المعارف كلها وسائل إذا توفر القصد والنية عند طلب الحق للوصول إلى غاية محددة هى تمكين العقيدة فى القلب بناء على وضوح الأدلة الموجودة فى النفس والكون .^(١)

وأرى أن الاتجاه الثانى أولى بالقبول فى عصرنا الحديث بعد ازدهار العلم والمكتشفات الجديدة التى تدعم وتقوى قضية الإيمان كل ذلك بناء على حسن النية وشرف المقصد والبعد عن الهوى والتعصب . ومن أمثلة الكتب الحديثة على سبيل المثال لا الحصر والتى تتسم بطابع استخدام المنجزات العلمية فى تدعيم قضية الإيمان كتاب " الإسلام يتحدى " ^(٢) و " الله يتجلى فى عصر العلم " ^(٣) و " قوانين الله وليست قوانين الطبيعة " ^(٤) و " القرآن وإعجازه العلمى " ^(٥) حيث إن الدفاع عن العقيدة ضد المنكرين ، وتثبيت جذور الإيمان فى قلوب المؤمنين يحتاج إلى الاستعانة بكثير من الأبحاث التجريبية والنظرية فى إيضاح الحقائق .

(١) انظر : العقيدة الإسلامية أصولها وتوحيدها للدكتور محمد نصار ٢٧/١ .
(٢) ألفه العالم الهندى المسلم وحيد الدين خان وترجمه للعربية ظفر الإسلام خان .
(٣) ألفه نخبة من العلماء الأمريكان وترجمه للعربية د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان وراجعه وعلق عليه د/ محمد جمال الدين الهندى .
(٤) ألفه د/ محمود سراج الدين عفيفى .
(٥) ألفه محمد إسماعيل إبراهيم .

ولعل هذا هو ما أراده صاحب المواقف في كلامه السابق وهو ما عبر عنه
بالتعلق البعيد بتركيب الأجسام ... الخ . لكن هذا الكلام لا يعنى إغفال الاتجاه
الأول الذى يتحدث عن ذات الله - تعالى - من حيث التجوُّب والاستحالة والجواز ،
وكذلك الرسل - عليهم السلام - ، ثم التصديق بالسمعيات .

من هنا نجد أن موضوع علم الكلام هو البحث حول القضايا الإيمانية في
العقيدة الإسلامية . بين ذلك الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قوله الجامع عن
عبادة بن الصامت عن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : « من قال
أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى
عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاهما إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، وأن
النار حق أدخله الله من أى أبواب الجنة الثانية شاء » (١) .

هذا الحديث يتضمن الأصول الثلاثة للعقيدة الإسلامية التى أوجب الله على
المسلم معرفتها ، والإيمان بها لتكتب له النجاة فى الآخرة وهى :

الأصل الأول : معرفة الله - تعالى - وصفاته ، والإيمان بهما ويطلق على
جملة المباحث المتعلقة به اسم (الإلهيات) .

الأصل الثانى : معرفة الواسطة بين الله - تعالى - وعباده ، وهى الإيمان
برسل الله وملائكته وكتبه وما جاءت به من تشريعات وتكاليف يطلق على جملة
المباحث المتعلقة به اسم (النبوات) .

الأصل الثالث : معرفة البعث والحساب والجزاء والإيمان بها ويطلق على
المباحث المتعلقة بها اسم (السمعيات) (٢) .

(١) صحيح مسلم ٧/٨ كتاب الإيمان وفى رواية أخرى " أدخله الله الجنة على ما كان من
عمله " .

(٢) انظر : العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع للدكتور محمد عصار ص ١٠٩ .

علاقة علم الكلام بغيره من العلوم :

لا شك أن العلوم تتمايز بتمايز موضوعاتها ، وكما تقدم فإن موضوع علم الكلام هو : ذات الله من حيث ما يجب له وما يستحيل وما يجوز ، والنبوات والسمعيات . ومن هنا كان لموضوع العلم أو الفن أهمية كبرى في الدلالة على علاقته بغيره من العلوم .

ولما كان كل من علمي الفقه وأصول الفقه له صلة بعلم الكلام من حيث اتفاق هذه العلوم الثلاثة على استثمار الأدلة في استنباط الأحكام الشرعية كانت العلاقة بينهما قوية وثيقة إلا أن كل علم منها له موضوعاته ومباحثه التي تجعله مميزا عن الآخر . إذ تلك هي طبيعة موضوعات العلوم ، لأنها تتمايز بموضوعاتها كما سبق أن أشرت .

فموضوع علم الفقه هو : الحكم على أعمال المكلفين من حيث الوجوب والحرمة والنسب والإباحة .^(١)

أما علم أصول الفقه فهو استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة السمعية التفصيلية .^(٢)

فعلم الفقه يقول مثلا الصلاة واجبة والدليل على وجوبها قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾^(٣) لكن لا يعرفنا كيف استنبط هذا الحكم وهو الوجوب ؟

(١) انظر : أصول الفقه الإسلامي للدكتور أحمد فراج ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) جزء الآية (٧٨) من سورة الحج .

أما علم أصول الفقه فإنه يقول لنا إن الصلاة واجبة : لأن الله - عز وجل - قال لنا : ﴿ فاقیموا الصلاة ﴾ والحکم صدر على سبيل الأمر والأمر للوجوب .
 فعلم الفقه بین الحكم فقط ، أما علم أصول الفقه فإنه بین لنا كيفية استنباط هذا الحكم من دليله السمعی التفصیلی وهو قوله - تعالى - : ﴿ فاقیموا الصلاة ﴾ وذلك من خلال قياس منطقی اقترانی تكون مقدمته الأولى الدلیل السمعی التفصیلی ، ومقدمته الثانية القاعدة الأصولية ، وتكون النتيجة هي الحكم المطلوب . وإليك مثالا يوضح ذلك :

| | |
|-------------------|-------------|
| أقیموا الصلاة أمر | مقدمة أولى |
| وكل أمر للوجوب | مقدمة ثانية |
| ∴ الصلاة واجبة | حكم شرعی |

ولاشك في أن بيان الأحكام العملية وبيان كيفية استنباطها يختلف تمام الاختلاف عن الحديث عن عقيدة الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب الذي هو موضوع علم الكلام . ولذلك سمي الإمام أبو حنيفة الكلام بأنه الفقه الأكبر في مقابل علم الأحكام الشرعية العملية التي تسمى بعلم الفقه الأصغر .^(١)

يقول أبو حيان التوحيدى مبينا الفرق بين علم الكلام والفقه : " وأما الفقه فإنه دائر بين الحلال والحرام ، وبين اعتبار العلل والأحكام وبين الفرض والناقلة ، وبين المحظور والمباح ، وبين الواجب والمستحب وبين المحثوث عليه والمنزه عنه ...

(١) انظر : العقيدة في ضوء النقل والعقل والقلب للدكتور عبد السلام عبيد ١٩٩٠ وما بعدها .

وأما علم الكلام فإنه باب من الاعتبار في أصول الدين يدور النظر فيه على محض العقل في التحسين والتبليغ والاحالة والتصحيح والإيجاب والتجويد والاعتدال والتعديل والتجويد والتوحيد والتكفير . والاعتبار فيه ينقسم بين دقيق يتفرد العقل به ، وبين جليل يفزع إلى كتاب الله - تعالى - فيه . ثم التفاوت في ذلك بين المتحليين به على مقاديرهم في البحث والتنقيب والفكر والتعبير ، والجدل والمناظرة والبيان والمفاضلة . والظفر بينهم بالعق سجال ولهم عليه مكر ومجال ، وبابه مجاور لباب الفقه والكلام فيهما مشترك . وإن كان بينهما انفصال وتباين ، فإن الشراكة بينهما واقعة والأدلة فيهما متضاربة . ألا ترى أن الباحث عن العالم في قدمه وحدوثه وامتداده وانقراضه يشاور العقل ويخدمه ويستضيء به ويستفهمه ، كذلك الناظر في العبد الجاني هل هو مشابه للمال فيرد إليه ، أو مشابه للحر فيحمل عليه . فهو يخدم العقل ويستضيء به .^(١)

وهذا النص عليه تحفظ فيما يتصل بقوله عن علم الكلام " ينبني على محض العقل " فإن علم الكلام لا يقوم على محض العقل ، وإلا كان فلسفة محضة لا صلة لها بالإسلام ، وإنما ينبني علم الكلام على النقل والعقل على خلاف بين الفرق في مدى اعتمادها على العقل وفي تقديم العقل على النص أو العكس .

وعلى هذا فإن علم الكلام يفترق عن الفلسفة في أنها تعتمد على محض العقل ، وليس علم الكلام كذلك كما بينا ... كذلك فإنه يتضح من كلامنا الفارق بين علم الكلام وكل من الفقه وأصوله .

(١) ثمرات العلوم ص ١٦١ وما بعدها نقلا عن : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٥٨ وما بعدها .

ثمرة علم الكلام والغاية منه :

يقول إبراهيم البيهقي إن ثمرة هذا العلم تكمن في " معرفة الله بالبراهين القطعية ، والفوز بالسعادة الأبدية " (١).

وهذه العبارة مع إيجازها تحمل معاني عديدة حيث إن معرفة الله - تعالى - بالبراهين القطعية التي تفيد اليقين لابد لمن يريد الوصول إليها من أن يبذل جهودا عن طريق التأمل والتفكير والتدبر والاعتبار في النفس والكون .

وهذه المعرفة أوسع من أن تحصر في إثبات وجود الله - تعالى - ، بل تشمل أيضا معرفة الواجبات والممكنات والمستحيلات في حقه ليس هذا فقط بل في حق من اصطفاهم لتبليغ رسالته .

وفي نفس الوقت تؤدي هذه المعرفة في حق الله - تعالى - إلى الإيقان والإيمان باليوم الآخر وما فيه ، وبالكتاب التي أنزلها على رسله إلى آخر هذه الموضوعات .

وإذا كان البيهقي قد تحدث عن ثمرة هذا العلم بصورة مجملة فقد فصلها الإيجي وذكر أنها :

١ - الترقى من حضيض التقليد إلى نروة الإيقان ، ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ (٢) خص العلماء المؤمنين بالذكر مع اندراجهم في المؤمنين ، رفعا لمنزلتهم كآله قال وخصوصا الاعلام منكم .

٢ - إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة ، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة .

٣ - حفظ قواعد الدين من أن تزلزلها شبه المبطلين .

(١) تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ٢٠ .

(٢) جزء الآية (١١) من سورة المجادلة .

- ٤ - أن يبنى عليه العلوم الشرعية ، فإنه أساسها وإليه يزول أخذها واقتباسها .
٥ - صحة النية والاعتقاد . إذ بها يرجى قبول العمل وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين .^(١)

- وما ذكره الإيجي في حديثه عن فائدة علم الكلام يقيد في عدة نواح :
١ - فائدة ترجع إلى الدارس لهذا العلم ، حيث إنه ينقل عقيدة الإنسان من دائرة التقليد المحض إلى أعلى درجات اليقين .
٢ - فائدة تعود إلى غير الدارس فإن كان مسترشداً ، فإنه يعينه على إيضاح الطريق والدليل والسبيل . وإن كان معانداً ألزمه بالحجة والبرهان .
٣ - فائدة ترجع إلى قواعد الدين عن طريق تثبيت هذه القواعد بآراء الشهاب والباطيل .

ولقد تحدث ابن خلدون عن فائدة علم الكلام فقال : " فائدته - أي علم الكلام - في أحاد الناس وطلبه العلم فائدة معتبرة ، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج القطرية على عقائدها " .^(٢)
ولعلم الكلام أهداف عظمى أهمها التصدي أمام دعاوى الضالين وأصحاب البدع والمبطلين .

ولقد انفرد صاحب المقاصد من بين المتكلمين بذكر فائدة دنيوية لهذا العلم إذ قال : " ومنفعت في الدنيا انتظام أمر المعاش بالمحافظة على العدل والمعاملة التي
(١) المواقف ص ٨ ، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ١/٣٢ وما بعدها ، المقدمة لابن خلدون ص ٤٣٢ .
(٢) المقدمة ص ٤٣١ .

يحتاج إليها في بقاء النوع على وجه لا يؤدي إلى الفساد ، وفي الآخرة النجاة من العذاب المرتب على الكفر وسوء الاعتقاد " (١).

والمدقق في هذا النص يرى أن الفائدة الدنيوية هنا معللة بأن الإنسان متى تيقن من أصول دينه بنى عليها سلوكه ليس فقط مع الله - عز وجل - بل ومع غيره وعندئذ تستقر الحياة ويزول الفساد والاضطراب . وبذلك يتضح جليا ما لهذا العلم من أثر نافع سواء أكان في الدنيا أم في الآخرة .

ولاشك في أن ما ذهب إليه " التفتازاني " صحيح ؛ لأن الواقع الذي يعيشه الإنسان في هذا العصر يؤدي صحته ، إذ أن القلق النفسي الذي يساوره والاضطراب العقلي الذي يحياه مرجعهما فقدان الإيمان بالله رب العالمين ، حيث إن الحضارة التي ينعم بثمارها لم تستطع أن تثبت فوائده ، بل أنها كانت سببا فيما صار إليه ؛ لأنها لم تعالج أو تهتم إلا بالجانب المادي فقط ، وأغفلت جانبا كبيرا له قدر كبير من الأهمية وهو الجانب الروحي الذي يتميز به الإنسان عن بقية الكائنات الحية .

يذكر الدكتور محمد إقبال في هذا الإطار : أن إنسان العصر - وبخاصة في البلاد الغربية - على الرغم مما له من فلسفات نقدية ، وتخصص علمي يجد نفسه في ورطة ، فمذهبه الطبيعي قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق له مثيل ، لكنه قد سلبه إيمانه في مصيره هو .

إن نشاطه المادي والعقلي جعله يكف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحية الكاملة التي تتغلغل في أعماق النفس ، فهو في حلبة الفكر في صراع صريح مع

(١) التفتازاني ١٧٥/١ .

نفسه ، وهو فى مضمار الحياة السياسية والاقتصادية فى كفاح صريح مع غيره .
ويجد نفسه - أيضا - غير قادر على كبح أثره الجارفة ، وحبه للمال حبا طاغيا
يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئا فشيئا ، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة ،
وقد استغرق فى الواقع الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلة بأعماق وجوده
وأخف الأضوار التى أعقبت فلسفته المادية . ذلك الشلل الذى اعتري نشاطه والذى
أدركه أحد زعماء الاتجاه المادى - مكسلى - وأعلن سخطه عليه (١).

ولاشك فى أن الإنسان فى هذا العصر فى حاجة إلى الاهتمام بالجانب
الروحى فيه وعلم العقيدة له دور كبير فى هذا باستخدام الأساليب الحديثة المناسبة
التي تواكب العصر . وعلى الأفراد والمؤسسات أن تتضافر جهودها حتى يلقى علم
العقيدة ثماره المرجوة .

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ٢١٤ وما بعدها .

حكم الأشرف قال بعلم الكلام :

لقد تباينت وجهة نظر العلماء إزاء الاشتغال بعلم الكلام فالبعض يحرمه والبعض يراه فرض كفاية ، والبعض الآخر يرى أنه فرض عين بشرط وجود شبهة يترتب حلها عليه .

يقول البياض : " وقد صرح بفرضيته على الكفاية إمام الحرمين في النهاية والحلي والبيهقي والغزالي والرافعي والياقعي والنووي وابن عساكر في العزيز والروضة والمحزر والإرشاد والتبيين . وصرح به الطيبي في " شرح المشكاة " والمطلي في شرح " جمع الجوامع " ، وقال الإمام ابن حجر الهيتمي في شرح المشكاة : إنه أكد فروض الكفايات بل هو فرض عين إذا وقعت شبهة توقف حلها عليه ... " (١).

يرى بعض الباحثين أن حكم تعلم علم أصول الدين هو الوجوب العيني على كل مكلف ذكر كان أو أنثى (٢).

ويبدو أن المراد بالوجوب العيني هنا ما لا يستغنى عنه من أمور الدين الأصلية إجمالاً في حق العامي وتفصيلاً في حق المسترشد .

ولذا رأينا أن الغزالي يفصل القول في هذا الإطار فيقول : " إن الأدلة التي نحررها في هذا العلم تجرى مجرى الأدوية التي يعالج بها مرضى القلوب والطبيب

(١) إشارات المرام ص ٢٥ .

(٢) انظر : تحفة المريد ص ٢٠ وما بعدها .

لقد فصل أحمد المحلاوي القول في حكم تعلم علم أصول الدين حيث رأى أنه فرض على كل مكلف من ذكر أو أنثى ولو بالأدلة الإجمالية ، أما بالأدلة التفصيلية ففرض كفاية . انظر : قواعد التأييد في عقائد التوحيد ص ٧ .

المستعمل لها إن لم يكن حاذقا ثاقب العقل رصين الرأي كان ما يفسده بدوانه أكثر مما يصلحه ^(١) وذلك بناء على اختلاف الناس في استعدادهم ومداركهم في التعليم حيث قسمهم إلى أربع فرق :

- الفرقة الأولى : أمنت بالله وصدقت رسوله واعتقدت الحق ، وأضمرت واشتغلت إما بعبادة وإما بصناعة ، فهؤلاء ينبغي أن يتركوا وما هم عليه ، ولا تحرك عقائدهم بالاستحثاث على تعلم هذا العلم ، فإن صاحب الشرع - صلوات الله عليه - لم يطالب العرب في مخاطبته إياهم بأكثر من التصديق ، ولم يفرق بين أن يكون ذلك بإيمان واعتقاد تقليدي أو بيقين برهاني وهذا مما علم ضرورة من مجارى أحواله في تركيته إيمان من سبق من أجلاف العرب إلى تصديقه ببحث وبرهان بل بمجرد قرينة ومخيلة سبقت إلى قلوبهم فقادت بها إلى الإذعان للحق والانقياد للصدق فهؤلاء مؤمنون حقا فلا ينبغي أن تشوش بهم عقائدهم ، فإنه إذا تليت عليهم هذه البراهين وما عليها من الإشكالات وحلها لم يؤمن أن تعلق بأفهامهم مشكلة من المشكلات وتستولى عليها ولا تمحى عنها بما يذكر من طريق الحل ولهذا لم ينقل عن الصحابة الخوض في هذا الفرع لا بمباحثة ولا بتدريس ولا تصنيف بل كان شغلهم بالعبادة والدعوة إليها وحمل الخلق على مراشدهم ومصالحهم في أحوالهم وأعمالهم ومعاشهم فقط .

- الفرقة الثانية : طائفة مالت عن اعتقاد الحق فمن استمسك بالباطل من هؤلاء ولم يذعن لمقتضى الدليل فلا ينفعه إلا السيف والوسط وهؤلاء مثل الكفرة والمبتدعة .

الفرقة الثالثة : طائفة اعتقدوا الحق تقليدا وسماعا ، ولكن خصوا في

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٥ .

القطرة بذكاء وفطنة فتنبهوا من أنفسهم لإشكالات تشككهم في عقائدهم وتزلزل عليهم طمأنينتهم أو تفرع سمعهم شبهة من الشبهات التي حاكت في صدورهم فهؤلاء يجب التلطف بهم في معالجتهم بإيراد الكلام المقبول عندهم . مثل تلاوة آية أو رواية حديث أو نقل كلام عن شخص مشهور عندهم بالفضل .

الفرقة الرابعة : طائفة من أهل الضلال يتفوس فيهم مخايل الذكاء والفطنة ، ويتوقع منهم قبول الحق إذا أزيل ما اعتراه في عقائدهم من الريبة ، فهؤلاء أيضا يجب التلطف بهم في استمالتهم إلى الحق وإرشادهم إلى الاعتقاد الصحيح بما يتلالم مع استعدادهم (١).

بعد هذا البيان لطبائع البشر واستعدادهم لقبول هذا العلم ينهى الغزالي حديثه بأن الاشتغال به فرض كفاية وليس فرض عين ؛ لأن التصديق الجازم وتطهير القلب عن الريب والشك ليس بواجب على كافة الخلق - بناء على التقسيم السابق - وعلى ذلك فقيام بعض الناس في كل قطر من الأقطار وصقع من الأصقاع بالاشتغال بهذا العلم لمقاومة دعاة البدعة ، واستمالة المائتين عن الحق ، وتصفية القلوب عن عوارض الغيبات يسقط الطلب عن الباقيين (٢).

وكلام الغزالي - رحمه الله - هنا أولى بالقبول والاعتبار ، لأنه لا يمكن أن يستبطن كل الناس أسرار هذا العلم ، كما أنه يوجد فرق بين تحصيل أصول العقيدة الذي هو مطلب لكل معتقد على قدر استعداده ، وبين أن يتفقه فريق في هذه الأصول بقدر يؤهلهم لتثبيتها في نفس المسترشد وإزالة الشكوك والأوهام التي تعترضه ودرء الشبهات التي يثيرها الخصم . فهذا لا يقوم به إلا من توهله مواهبه لذلك .

(١) المرجع السابق ص ١٥ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١٩ وما بعدها .

ولاشك أن قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ ^(١) عام في كل أمور الدين أصولها وفروعها وبيان لحكم التفقه فيه أصلاً كان أو فرعاً كذلك .

ولا شك أن الاتجاه المغالى في تحقير علم الكلام واعتباره جدلاً في الدين بلا طائل ، بل الحكم على المشتغلين به بالزندقة إنما ينصب حكهم على الكلام المذموم ، الذي يراد من ورائه التشكيك بإثارة الشبهات وزعزعة الاعتقاد كالخوض في التشابه من القرآن الكريم خوفاً لا طائلاً تحته ، وكالسؤال عن طبائع المفاهيم ، مما هو محل للتسليم والإذعان ، وليس مجالاً للتعلل والإدراك كما تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن لم الكتاب وأخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ ^(٢) بهذا يتضح أن مهمة هذا العلم قائمة في إطار تقاطع العقل مع الوحي بما يحفظ لكل منهما قدره .

هذا ويعد أن انتهينا - بحول الله تعالى - من الحديث عن مبادئ علم الكلام لا بد لنا من وقفة نتعرف من خلالها على نشأة هذا العلم وتطوره .

(١) جزء الآية (١٢٢) من سورة التوبة .
(٢) الآية (٧) من سورة آل عمران .

المبحث الثاني

نشأة علم الكلام وتطوره

المبحث الثانى نشأة علم الكلام وتطوره

أولا : نشأة علم الكلام :

لا شك فى أن أى علم من العلوم يمر بمراحل عدة حتى توضع أصوله وتستقيم قواعده وتفصل مسائله ، ثم يضيف إليه المشتغلون به من اللاحقين ما يتصورون أن السابقين قد أهملوه ، أو تكون لهم استقراكات على أقوالهم ، وهكذا فأى علم من العلوم يتطور من النشأة والموهبة حتى يقرب من الاكتمال على قدر الطاقة .

وعلم الكلام - من الناحية الفنية - قد مر بسلسلة من التطورات حتى استقام على الصورة التى نراها عند المتأخرين أمثال " الإيجى " فى كتابه " المواقف " و " التفتازانى " فى كتابه " المقاصد " .

يرى كثير من المتكلمين أن علم الكلام نشأ عند ظهور الفرق الكلامية كالخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة والاشاعرة . وأن هذا العلم بمادته وقضاياها إنما هو نتاج هذا التماحن الفكرى العقدى الذى يمثل تراث هذه الفرق .

وهذا ينتج - بداهة - وبلا شك خلو عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعصر الخلفاء الراشدين من بعده من النظر العقلى العقدى . ويرجع نشأة هذا العلم إلى الحقبة الأخيرة من حكم الخليفة الرابع على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - حيث كانت الخوارج تتصارع فكريا مع الشيعة ، ثم ظهرت بعد ذلك فرقتا المعتزلة وأهل السنة وغير ذلك من الفرق الكلامية التى أكثرت القول فى قضايا العقيدة وطال جدلهم حول مسائلها .

ولكن ينبغي علينا قبل قبول هذا الرأي أو رفضه أن نتبه إلى أن التوحيد يطلق بإطلاقين :

الأول : بالمعنى الشرعى الذى جاء به الإسلام وقرره القرآن الكريم فى كثير من سوره وآياته - أعنى أفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا .

الثانى : بالمعنى الاصطلاحى المدون - وهو العلم الذى يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه . أو هو العلم الباحث فيما يجب لله وما يستحيل وما يجوز والسمعيات .^(١)

فالتوحيد بالمعنى الأول ليس بخيلا على الإسلام بل هو عماد الإسلام وأساس الدين وبالتالي لا يكون مستجدا ولا مستحدثا .

أما بالمعنى الثانى فإنه لم يكن موجودا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا على عهد الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم أجمعين - وذلك لعدم حاجتهم إلى هذا النوع من العلم آنذاك " لأنهم أدركوا زمان الوحي وشرف صحبة صاحبه - صلى الله عليه وسلم - ، وأزال نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والأوهام .^(٢)

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لم يكن هناك من الأحداث والفتن على عهدهم ما يستدعى الجدل والأخذ والرد . بيد أن هذا الوضع لم يدم طويلا فسرعان

(١) انظر : توضيح العقائد التفسيرية ٨/١ .

(٢) مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ١٦٢/٢ ، مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بنوى ٢٨/١

ما تبدل الحال وجدت ظروف على الساحة مهدت لنشأة هذا العلم . حيث ظهرت الفتن بين المسلمين وغلب البغى على أئمة الدين ، وظهر اختلاف الآراء والميل إلى البدع والأهواء . وكثرت الفتاوى والرجوع إلى العلماء فى ملحات الأمور . فاشتغلوا بالنظر والاستدلال وتمهيد القواعد والأصول ووضع أسس هذا البناء الذى تكون حول هذه المنازعات وهذا الجدل حتى كان منه ما سمي بعد ذلك بـ " علم الكلام " .

هذا ولا شك فى أن الرأى الذى يرى خلو عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين من بعده من النظر العقلى العقيدى وإعلانه تسليم الصحابة بكل ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند الله - عز وجل - فى قضايا العقيدة دون نقاش أو إبداء رأى . رأى لا يُطْمَأْنِئُ إليه وتتقصه الأدلة على صدق ما ذهب إليه .

وفى هذا الإطار يقول الدكتور عبد السلام عبيد : " فمع تسليمنا المطلق بخلو عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - من هذا الجدل الذى ألف حاميا وطيسته بين الفرق الكلامية . إلا أننا نعتقد أن هذا لا يعنى خلو هذه الحقبة من الزمن من النظر العقلى العقيدى ، غاية ما هنالك أن هذه الفترة التأسيسية من حياة الإسلام طهرت من أدران الشبهات والفكر الملوث الدخيل . وامتازت بنظافة القلب والعقل معا .

والقلب والعقل إذا خليا من أدران الشبهات وتطهرا وخلصا للحق أدركا الحق ولم يختلفا عليه . وبانعدام الخلاف تظهر الوحدة الفكرية ويتضح الإجماع

الذين بوا ، وهذا ما اتسم به عهد النبوة والراشدين من بعده فتوهم أنه تسليم دون
نظر عقلى . فعهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعهد الراشدين من بعده خليا
من الجدل لا من النظر العقلى .

إن علم الكلام نشأ للدفاع عن العقيدة الإسلامية وإثبات قضائاه ودرء
الشبهات عنها لا لمرض مواطن الخلاف بين الفرق الكلامية فقط .

فهو إذن لسان حق للدفاع عن العقيدة ، ولاشك أن حاجة الدعوة إلى هذا
اللسان المدافع ماسة فى كل دور من أدوارها ابتداء من إعلان نبئها - على لسان
صاحب الوحي - وإلى ما بعد يومنا هذا - أى إلى أن يقوم الناس لرب العالمين - ،
فكيف يقال بخلو عصر الرسول والصحابه الراشدين منه ؟ (١) .

الحقيقة أن علم الكلام نبتت بعض جنوره فى عصر الرسول - صلى الله
عليه وسلم - حيث روى أنه - عليه الصلاة والسلام - خرج على أصحابه وهم
يختصمون فى القدر . فكانما يلقأ فى وجهه حب الرمان من الخضب . فقال :
« بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض . بهذا هلكت الأمم
قبلكم » . (٢) .

فمنذ أن بزغت شمس النبوة فى مكة المكرمة كانت تظهر على الساحة
الإسلامية بين العين والآخر بعض المسائل التى تعتبر من صميم علم الكلام خاصة
ما كان منها يتعلق بالذات الإلهية والصفات والأسماء والقضاء والقدر والوعد
والوعيد والنبوة والبعث .

(١) العقيدة الإسلامية فى ضوء النقل والمقل والقلب ص ١٦ ، تاريخ الفرق الإسلامية للدكتور على
مصطفى الغرابي ص ١٢ .

(٢) سنن ابن ماجه ٢٢/١ المقدمة باب القدر حديث رقم ٨٥ .

لذا يمكن اعتبار قول ذي الخويصرة التميمي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : **اعدل يا محمد فإنك لم تعدل** * . ورد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله : **« إن لم أعدل فمن يعدل »** فعارذ الرجل وقال : **« هذه قسمة ما أريد بها وجه الله - تعالى - وعند هذا قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « سيخرج من خنفسى ** هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية »** ^(١) خروجا على الإمام بحكم الهوى ، وتحسينا للعقل على النص واستكبارا وعنادا .

كما يعتبر قول طائفة من المنافقين يوم أحد **« هل لنا من الأمر من شيء »** ^(٢) وقولهم **« لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا »** ^(٣) وقولهم **« لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا »** ^(٤) تصريحاً بالقدر .

* كان ذلك عند تقسيم الغنائم في غزوة حنين حيث أثر الرسول - صلى الله عليه وسلم - نفرا ترغيبا وتأليفا لقلوبهم فانبرى هذا الرجل ذو الخويصرة وقال ما قال .
 وذهب " فلهونن " إلى أن هذه القصة أسطورية ولم ترد عن ذي الخويصرة السلفي القديم للخوارج . ونهج نهجه الدكتور عبد الرحمن بدوي حيث اعتبر ذا الخويصرة رجلا مجهولا تماما . انظر : الخوارج والشيعية ليوليس فلهونن ص ٤٤ وما بعدها ترجمة د/ عبد الرحمن بدوي . إلا أن الخطيب الهاشمي في كتابه " وقعة النهروان أو الخوارج " يرى مبدأ لا حكم إلا لله وكلمة اعدل يا محمد هما الأساس لمبدأ الخوارج وعقيدتهم . انظر : الخوارج للدكتور مصطفى حلمي ص ٢٤ وما بعدها
 * * خنفسى : أى من عنصره وذريته .

(١) هكذا ورد الحديث في المال والنحل ٢٢/١ وورد في صحيح مسلم كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج ٧٤٠/٢ حديث رقم ١٤٢ بلفظ : **« أتى رجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالجمرة بعد غزوة حنين ومع بلال فضة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ منها ويعطى الناس . فقال الرجل يا محمد اعدل فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : ويحك . ومن يعدل إذا لم أكن أعدل . لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل فقال عمر : دعني يا رسول الله فاقتل هذا المنافق فقال - صلى الله عليه وسلم - : معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي . إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية .**

- (٢) جزء الآية (١٥٤) من سورة آل عمران .
- (٣) جزء الآية (١٥٤) من سورة آل عمران .
- (٤) جزء الآية (١٥٦) من سورة آل عمران .

كما يعتبر ادعاء طائفة من المشركين ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ ^(١) وقوله ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ ^(٢) تصريحاً بالجبر. ^(٣)

وما من شك في أن هذه المسائل من صميم علم الكلام ولئن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن بعده الصحابة حتى مقتل علي - رضى الله عنه - كانوا يعالجون هذه المسائل معالجة دينية صرفة الحكم فيها للنص ، والفصل هو الوحي .

ولقد كان هذا الخلاف وما شابهه سبباً لتوقع الرسول - صلى الله عليه وسلم - الفرقة بين المسلمين ، ومن ثم قال - عليه الصلاة والسلام - « لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم » ^(٤)

إلا أن الحياة العقلية قد تطورت بتطور الزمن حين ظهرت الفرق الكلامية في آخر عهد الراشدين وبداية عهد بني أمية فكان هذا التراث الضخم الذي ترعرع في ظل الجذور التي نبتت في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما سبق أن أشرت .

يقول محمد عبده في هذا المقام : " هذا النوع من العلم - علم تقرير العقائد ، وبيان ما جاء في النبوات كان معروفاً عند الأمم قبل الإسلام ، ففي كل أمة كان القائلون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده ، وكان البيان من أول وسائلهم

(١) جزء الآية (٢٥) من سورة النحل .

(٢) جزء الآية (٤٧) من سورة يس .

(٣) انظر : الملل والنحل للشهرستاني ٢٢/١ وما بعدها .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ٢١٩/١٦ وما بعدها ، وقد ورد في كتب الصحاح بالفاظ أخرى .

إلى ذلك ، لكنهم قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي ، وبناء آرائهم وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون ، بل كانت منازع العقول في العلم ، ومضارب الدين في الإلزام بالعقائد ، وتقريبها من مشاعر القلوب ، على طرفي نقيض . وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل في نتائجه ومقدماته ، فكان جلُّ ما في علم الكلام تأويلا ، وتفسيرا وإدهاشا بالمعجزات ، أو إلهاء بالخيالات ، يعلم ذلك مَنْ له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية .

جاء القرآن فانتهج بالدين منهجا لم يرق عليه ما سبقه من الكتب المقدسة - لدى أصحابها - ، منهجا يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه ولن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه ، فترك الاستدلال على نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة ، وحصر الدليل في حال النبي مع نزول كتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ، ولو في مثل أقصر سورة منه ، وتناول من مقام الألوهية ما أنن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم ، لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه ادعى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين ، وكر عليهم بالحجة ، وخاطب العقل واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام ، والإتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه ^(١) .

هذا وقد انتهى عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكلمة المسلمين واحدة ، فلم يؤثر أن اختلف المسلمون في عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قضية من قضايا العقيدة التي أكملها الله - تعالى - في حياة النبي - صلى

(١) رسالة التوحيد ص ٩ وما بعدها .

الله عليه وسلم - فلم يلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ربه إلا وقد كمل الدين ، وتمت النعمة وأنزل الله - تعالى - عليه قوله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (١)

يذكر ابن القيم أن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يخوضون مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في دقائق المسائل ، ويتفهمون عنه حقائق الإيمان ، وكانوا يوردون عليه ما يشكل عليهم من الأسئلة والشبهات ، فيجيبهم عنها بما يثلج صدورهم ، وقد أورد عليه - صلى الله عليه وسلم - الأسئلة أعداؤه وأصحابه .

أما أعداؤه فللتعنت والمغالبة ، وأما أصحابه فللفهم والبيان ، وزيادة الإيمان وهو يجيب كلا عن سؤاله ، إلا ما لا جواب عنه كالسؤال عن وقت الساعة (٢).

(١) جزء الآية (٣) من سورة المائدة .

(٢) انظر : زاد المعاد ٥٧/٣ .

الخلافت التي وقعت بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه

وسلم - :

بعد أن انتهى عصر الرسول - عليه الصلاة والسلام - وهو الهادي من
الحيرة والسراج في الظلمة حدثت خلافت بعضها عقدى وبعضها الآخر على .

١ - الخلاف حول موت رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

حيث ذهب بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - وعلى رأسهم عمر بن
الخطاب - رضي الله عنه - إلى أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يموت
وإنما رفع كما رفع عيسى ابن مريم ^(١).

وفي رواية أخرى أن عمر بن الخطاب قال : " إن رجلاً من المنافقين رآه
أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - توفي ، وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى
ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد
أن قيل : قد مات . والله ليرجع رسول الله كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي رجال
وأرجلهم زعموا أنه مات " ^(٢).

فقد أحدث موت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذهولاً جعل بعض
الصحابة يذهل عن هذا المصير الذي ينتظر الخلق أجمعين ورسول الله واحد منهم
بل ينسى وهو في ذهوله قول الله - تعالى - ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ^(٣).

(١) انظر : الملل والنحل ٢٤/١ .

(٢) حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - للدكتور محمد حسين فيكل ص ٥٠٦ .
من خلال الروايتين يتضح أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لم يصدق بموت
سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - سواء أكان عن طريق الرفع كما حدث لعيسى -
عليه السلام - أم عن طريق الغيبة كما حدث لموسى - عليه السلام - .

(٣) الآية (٢٠) من سورة الزمر .

وقد انحسم هذا الخلاف بعودة أبي بكر - رضى الله عنه - من السنج *
فدخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حجرة عائشة - رضى الله
عنها - فوجده ممددا على فراشه ومسجى ببردته فكشف عن وجهه وقبله ثم قال
قوله المشهورة : " يا بى أنت وأمى ما أطيب حياتك وأطيب ميتك " (١).

ثم خرج إلى الصحابة وعمر يقرر ما قاله فقال أبو بكر : " من كان يعبد
محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت " . ثم تلا
قول الله - تعالى - : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ (٢).

ثم يذكروهم بقول الحق - سبحانه وتعالى - لرسوله الكريم - عليه صلوات
الله وسلامه - : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (٣) فتسكن النفوس وتطمئن القلوب
وتدمن له الرقاب وتجتمع عليه الصحابة وينحسم الخلاف عند هذا الحد وينزل .

٢ - الخلاف في موضع دفنه - عليه الصلاة والسلام - :

اختلفت الآراء حول هذا الموضوع فأراد " أهل مكة من المهاجرين رده إلى
مكة : لأنها مسقط رأسه ومائس نفسه وموطن قدمه وموطن أهله وموقع رحله .
وأراد أهل المدينة من الانتصار دفنه بالمدينة : لأنها دار هجرته ومدار نصرته .

* السنج : مكان بموالى المدينة وكان الصديق - رضى الله عنه - قد استأذن رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - أن ينزل أهله هناك فقبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو غائب .
(١) الطبقات لابن سعد ج٢ قسم ٢ ذكر تقبيل أبي بكر الصديق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد وفاته ص ٥٢ .
(٢) الآية (١٤٤) من سورة آل عمران .
(٣) الآية (٢٠) من سورة الزمر .

وأرادت جماعة نقله إلى بيت المقدس : لأنه موضع دفن الأنبياء ومنه معراج إلى السماء ثم اتفقوا على دفنه بالمدينة * (١) وزال الخلاف ببركة الصديق - رضى الله عنه - حين روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « الأنبياء يدفنون حيث يقبضون » (٢) فقبلوا منه روايته ورجعوا إلى قوله ودفنوه في حجرته .

٣ - الخلاف في الإمامة :

فقد اختلف الصحابة - رضوان الله عليهم - عقب موت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيمن يخلفه . فقد اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتشاورون فيمن يلي أمر المسلمين منهم ، وعلم المهاجرون بذلك فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فوجدوا الأنصار وقد هموا بمبايعة خليفة منهم ، واشتد الخلاف فيمن يلي الأمر حتى قال أحد الأنصار منا أمير ومنكم أمير .

ولكن أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - بحنكته وكياسته وحكمته ونور بصيرته حسم الخلاف واستطاع أن يقنع الأنصار بأن الإمامة في قریش وهذا هو حكم الله الذي لا ينبغي للأنصار أن يخالفه (٣) . لأن الله - عز وجل - يقول : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ (٤)

(١) الملل والنحل ٢٤/١ وما بعدها ، والتبصير في الدين للإسفرائيني ص ١٩ وما بعدها .
(٢) روى الإمام مالك حديثا بمعناه : باب جامع الصلاة على الجنائز : رقم ٥٤٥ يلفظ أن أبا بكر قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ما دفن نبي قط إلا في مكانه الذي توفي فيه » . موطأ الإمام مالك ص ١٥٤ .
(٣) انظر : الملل والنحل ٢٥/١ ، ومقالات الإسلاميين للأشعري ٢٩/١ وما بعدها ، والتبصير في الدين ص ٢٠ . وانظر بالتفصيل هذا الموضوع في كتاب الصديق أبي بكر للدكتور محمد حسين هيكل .
(٤) الآية (٨) من سورة المشر .

قال أبو بكر فسمانا الله الصادقين ثم أمر المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين فقال
- تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) ثم
روى لهم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « الأئمة من قريش إن لهم
عليكم حقا ولكم عليهم حقا مثل ذلك ما إن استرحموا فرحموا وإن عاهدوا وفوا وإن
حكموا عدلوا فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (٢)
وانتهى الخلاف عند هذا الحد .

هذه هي بعض الخلافات التي ظهرت عقب وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -
فلما تولى أبو بكر - رضى الله عنه - الخلافة واجه عددا من الخلافات
كان لها أثر لا ينكر في نشأة علم الكلام وإن لم تكن في ذاتها عقيدية منها على
سبيل المثال :

أ - الاختلاف في تسيير جيش أسامة بن زيد إلى بلاد الشام :
حيث عقد الرسول - صلى الله عليه وسلم - اللواء لأسامة بن زيد على رأس
جيش وجهه لمحاربة الذين أكثروا من الإغارة على القبائل الإسلامية المتاخمة
لحدودهم ولرد اعتبارهم في غزوة مؤتة .

لكن الجيش ما كاد يبعد عن المدينة المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة
والسلام - حتى علم بنبا وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فعاد الجيش
ليشارك في وداع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولحماية المدينة من غارات
المفجرين في هذه الظروف العصيبة .

(١) الآية (١١٩) من سورة التوبة .
(٢) مسند أحمد ١٢٩ / ٣ وورد برواية أخرى في مسند أبي يعلى ٢٢١ / ٦ حديث رقم ٣٦٤٥
« الأئمة من قريش إذا حكموا فعدلوا ، وإذا عاهدوا فوفوا ، وإذا استرحموا فرحموا » .

فلما انتهى الصحابة من دفن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر أبو بكر - رضى الله عنه - أسامة بن زيد أن يقود الجيش إلى مهمته التي كلف بها تنفيذًا لأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإتمامًا لعمل قصر الأجل برسول الله عن إتمامه .

وهنا اعترض عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لأن إنفاذ هذه المهمة يؤدي إلى تعرية المدينة من حاميتها في ظروف تهددها فيها الأخطار بعد أن انتقضت الجزيرة العربية كلها على الإسلام ما بين مرتد عنه إلى الوثنية ، أو منتقم لآركانه بامتناعه عن أداء الزكاة مما اضطر معه أبو بكر - رضى الله عنه - إلى عقد أحد عشر لواء لأحد عشر جيشًا لإخماد هذه الفتنة في معارك حامية عرفت بحروب الردة . واستغرقت فترة خلافة أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - .

إلا أن أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - قد حرك الجيش تنفيذًا لما أمر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل وفاته ، ثم عاد عمر - رضى الله عنه - فاعترض على تعيين أسامة بن زيد وهو حدث لقيادة الجيش وفيه كبار الصحابة والسابقون الأولون فثار * أبو بكر ثورته التي حفظها له التاريخ وقال : " تكلتك أمك يا ابن الخطاب أيوليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويعزله ابن أبي قحافة " وانحسم النزاع وتحرك الجيش بقيادة أسامة بن زيد . وتحقق له النصر والظفر على أعداء الإسلام .

* لقد كان هدف أبي بكر - رضى الله عنه - ينحصر في تنفيذ كل ما أمر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل وفاته على الهيئة التي أمر بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، حتى لا يكون هو - رضى الله عنه - أول من نقض لأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وليس من شك في أن إنفاذ أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يشتمل على أمور تعبدية دينية . إلى جانب رؤيته - صلى الله عليه وسلم - النافذة التي قد لا يصل إلى الحكمة منها غيره ... لذلك - رغم كثرة المخالفين لأبي بكر في ذلك - فإن رأيه قد غلب وقد نفذ .

ب - الاختلاف فى قتال مانعى الزكاة :

بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - امتنعت بعض قبائل الأعراب عن دفع الزكاة اعتقاداً منهم أن هذه الزكاة كانت خاصة بالرسول - صلى الله عليه وسلم - تدفع له وكان هو الذى يقوم بيده الشريفة بتوزيعها على أصنافها الثمانية الذين ذكرتهم الآية الكريمة : ﴿ إنما الصدقات للفقراء^١ والمساكين^٢ والعاملين^٣ عليها والمؤلفة قلوبهم^٤ وفى الرقاب^٥ والغارمين^٦ وفى سبيل الله^٧ وابن السبيل^٨ فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ (١).

ولقد بنت هذه القبائل معتقدها على أساس خاطئ ووقفوا عند ظاهر النص فى قول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ (٢).

فالآية خطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - [خذ] لاخذ خاص به ،
لنوع سواء .

وقوله : ﴿ إن صلاتك سكن لهم ﴾ يفيد أن الزكاة لا تدفع إلا لمن كانت صلاته سكناً لهم وليس أحد مثل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فليس لهم أن يدفعوها إلا له ، وليس لأبى بكر - رضى الله عنه - أو لأحد ممن يلى الأمر بعده أن يطالبهم بها .

حتى قال قائلهم :

أطعنا رسول الله مذ كان فينا .: فيالعباد الله ما أبى بكر

(١) الآية (٦٠) من سورة التوبة .

(٢) جزء الآية (١٠٣) من سورة التوبة .

ولقد رأى أبو بكر فى منع الزكاة هدما لركن أصيل فى الإسلام دعا إليه القرآن الكريم صراحة ونادت به السنة قولاً وعملاً (١).

فقرر قتالهم حتى يدفعوا الزكاة وقال قوله الماثورة : " والله لو منعونى عقاب بعير كانوا يؤدونه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقاتلتهم عليه " .

وقد خالف عمر بن الخطاب أبا بكر - رضى الله عنهما - وتمسك عمر بظاهر لفظ الحديث فهم فى نظر عمر مسلمون شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وقاتلها معصوم الدم مصان العرض والمال لا يجوز قتله أو قتاله .

فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم " (٢).

ولكن أبا بكر تمسك بقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : " إلا يحقها وحسابهم على الله " - أى بحق الإسلام - فالزكاة حق تستباح معه الدماء . كما فهم من اقتران الصلاة والزكاة من معظم أى الكتاب وأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنهما لا فرق بينهما . ثم سير أبو بكر الجيوش لقتال مانعى الزكاة حتى أنه مضى بنفسه لقتالهم وناصره فى ذلك عمر - رضى الله عنه - فانحسم النزاع .

(١) انظر : العقيدة الإسلامية فى ضوء النقل والعقل والقلب ص ٢٤ وما بعدها .
(٢) صحيح مسلم ٢/١ كتاب الإيمان وورد أيضاً بلفظ : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا يحقها وحسابهم على الله " .

إلا أن بعض الباحثين يرون أن هذا الخلاف لم يحسم وأن كل فريق تمسك برأيه واجتهاده . فقد ظل عمر يناصر أبا بكر - رضى الله عنه - حتى لا يتشعب رأى المسلمين أو تتفرق كلمتهم وعندما ولى الأمر بعد وفاة أبى بكر الصديق رد السبايا والأموال إليهم وأطلق المحبوس منهم ^(١).

هذا الرأى يعارضه ما ورد فى الصحيح عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال : فما إن رأيت أبا بكر قد عزم عزمته حتى اطمأن قلبى إلى رأيه - أو كما ورد فى الرواية - .

وأما رد عمر - رضى الله عنه - السبايا وإطلاق المحبوسين ، فذلك رأى قد تكون الظروف هيأت له ، وقد كان عمر - رضى الله عنه - من نوى البصيرة والفراسة .. ومن ثم فلا يجوز أن يحمل رده السبايا وإطلاقه المحبوسين على أن قلبه لم يكن خالصا مع أبى بكر - رضى الله عنه - ، أو أنه قد ماتت خلافة أبى بكر كلها وعمر - رضى الله عنه - فى قلبه دخل من أبى بكر - رضى الله عنه - الجميع - .

ج - فى أمر الخلافة لعمر - رضى الله عنه - :

قبل أن يفارق الخليفة الأول الحياة عين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خليفة له يلى الأمر من بعده حتى لا تتفرق كلمة المسلمين ويحدث ما حدث فى سقيفة بني ساعدة .

وقد كان ذلك مثار خلاف بين المسلمين حول موضوع الإمامة التى لا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحد موضوعات علم الكلام .

(١) انظر : الملل والنحل ٢٦/١ .

وبالرغم من هذا النزاع فقد تولى عمر بن الخطاب الإمامة وحدث في عهده كثير من الخلافات ، إلا أن حزمه وجراته وصرامته * في الحق وعدالته في الحكم كل هذه السمات التي اتسم بها لم تنسح المجال لتفريق الرأي واختلاف الكلمة .

ومع ذلك فقد أثبتت بعض المشكلات المتصلة بالعقيدة خاصة مشكلة القدر ، إلا أنها كانت في صورة بسيطة دون إيراد أدلة عقلية . إلا أن البعض أثارها لكي يبرر أفعاله بزعم أن القدر قد يبرر لهم تلك الأفعال التي يقومون بها وأنهم مسوقون إليها .^(١)

فقد روى أن عمر - رضى الله عنه - أتى بسارق فقال : لِمَ سرقت ؟ فقال : قضى الله على فأمر به فقطعت يده وضرب أسواطاً ، فقيل له في ذلك ، فقال : القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله .

ولقد زعم أيضاً بعض الذين اشتركوا في قتل عثمان - رضى الله عنه - أنهم ما قتلوه إنما قتله الله ، بل قالوا له حينما حاصروه ودموه : الله يرميك ، فقال : كذبتم لو رماني الله ما أخطئني .^(٢)

هذا ولم يكن للخلافات التي حدثت بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أثر في نشأة علم الكلام ، وكذلك ما حدث من خلافات في عهد أبي بكر وعمر وصغر خلافة عثمان - رضى الله عنهم أجمعين - لأنه لم يكن في مسائل

* أخرج الدارمي في سننه ٤/١ هـ عن سليمان بن يسار أن رجلاً يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وقد أعد له مراجعين النخل فقال : من أنت قال : أنا عبد الله صبيغ فأخذ عمر عرجونا من تلك المراجعين فضربه وقال أنا عبد الله عمر فجعل له ضرباً حتى أدمى رأسه فقال : يا أمير المؤمنين حسبك قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي .
(١) انظر : حقيقة الخلاف بين المتكلمين للدكتور علي عبد الفتاح ص ٢٨ .
(٢) انظر : المنية والامل لابن المرتضى ص ٨ .

اعتقادية ، بل كان حول بعض مسائل عملية تدور حول الفرائض (الميراث) التي لم يرد فيها نص قاطع * (١) ومن ثم لم يكن لها أثر في نشأة هذا العلم .

ولم يدم الحال على ذلك طويلا فقد جد من الأحداث والفتن ما جعل المسلمين يختلفون في المسائل الاعتقادية كما اختلفوا من قبل في المسائل العملية .

فعندما تولى عثمان - رضى الله عنه - بدأت الفتن السياسية تطل برأسها إلى أن وقعت الطامة الكبرى وانتهى الأمر بقتله . وقد كان لابن سبأ * اليهودى اليد الطولى في ذلك حيث ألب الثوار على سيدنا عثمان - رضى الله عنه - فكان ما كان . وبدأ بيث سمومه بين المسلمين . وتظاهر هذا الحاقد بحب على - كرم الله وجهه - بدعوى أنه أحق آل البيت بالخلافة وغالى في حبه لعلى - كرم الله وجهه - حتى زعم أن الله قد حل فيه . وقد كان مذهبه أساسا لما وجد بعد ذلك من مذاهب غلاة الشيعة . (٢)

وبعد قتل عثمان - رضى الله عنه - تولى على - كرم الله وجهه - الخلافة لم تهدأ الفتنة ولم يستقر الحال بل زاد الشر واتسع الخرق على الراقع . واشتعلت نار الحرب بين المسلمين فكانت موقعة (الجمل) ثم موقعة (صفين) وما كان من أمر التحكيم وخروج قوم من أصحاب على - كرم الله وجهه - سوا (الخوارج) *

* يرى بعض الباحثين أن * ابن سبأ * شخصية لا وجود لها وأنه رجل خرافي ليس له وجود تاريخي محقق وذهب إلى ذلك طه حسين * في * الفتنة الكبرى * وأثبت وجوده * أحمد أمين * في * فجر الإسلام * وشايخ الفريقين كثير . ومن ذهب إلى إنكاره ليس لهم من الأدلة ما تثبت مدعاهم . انظر ابن سبأ لمرتضى العسكري ص ١٧ ، وهامش (١٠١) من كتاب دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي للدكتور حسام الدين الألوسي ص ٧٢ .

(١) توضيح العقائد النسفية ١٠/١ شرح وتحليل د/ سليمان خميس .

(٢) انظر : رسالة التوحيد ص ١٢ ، والبرهان لعباس بن منصور الحنبلي ص ٥٠ .

* يرى بعض الباحثين أن مبدءا لا حكم إلا لله ، وكلمة اعدل يا محمد التي قالها ذو الخويصرة التميمي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - مما الأساس لمبدء الخوارج وعقيدتهم . انظر : وقعة النهروان أو الخوارج لعلى بن الحسين الهاشمي ص ٤ ، نقلا عن : الخوارج للدكتور مصطفى حلمي ص ٢٥ .

ولقد حاول على - كرم الله وجهه - إقناعهم بالحسنى فأبوا وتمسكوا بأن يقر على نفسه بأنه أخطأ في التحكيم ، ولم يكتفوا بذلك بل طلبوا منه أن يقر على نفسه بالكفر قبل أن يعودوا معه إلى حرب معاوية وأصحابه .

إلا أن عليا - رضى الله عنه - رفض ذلك فخرجوا عليه وذهبوا إلى قرية قريبة من الكوفة تسمى (حروراء) وتأهبوا لقتل على لكنه حاربهم في موقعة (النهروان) فدبروا لقتله وكانت نهاية الصراع بين على - كرم الله وجهه - والخوارج اغتيال على واستقرار الأمر لمعاوية ، بيد أن الحرب لم تنته والفتن لم تقف بل ساءرت ركاب الدولة الأموية وخصوصا تلك الحروب التي كان يثيرها الخوارج من أن لآخر .

منذ ذلك الحين بدأ بناء الجماعة يتصدع ، وتفرقت حرا الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة وأخذ الأحزاب في تأييد آرائهم كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل ، وكانت بداية الاختراع في الرواية والتلويل وفلا كل قبيل فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين .^(١)

من هنا يتضح مناصرة الأمويين لمعاوية بن أبى سفيان ، والشيعية لعلى - كرم الله وجهه - والخوارج ينفون عن هؤلاء وأولئك وصف الإيمان ويدخلونهم في زمرة الكفار ، وبذا أصبحت قضية الإيمان والكفر منطلقا للجدل الذى أصبح من البدايات الأولى لعلم الكلام ، وأثارت الخوارج بعض القضايا وجادلت في الدين باسم العقيدة ، ومزقت العقيدة باسم الدين وكفرت على ومعاوية ، وأثارت جدالا كبيرا حول قضية الإمامة ، وهل هي بالاختيار أو بالتعيين ...

(١) انظر : رسالة التوحيد ص ١٢ .

ليس هذا فقط بل بدأت مسافة مرتكب الكبيرة تطل برأسها وكان للفرق موقف حول هذا الموضوع إذ رأت الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر . وأدلت المرجئة بدلوها في هذا الشأن فنادت بترك الجدل وإرجاء * الأمر إلى الله - عز وجل - في شأن المتنازعين .

يقول الشهرستاني عنهم : " كانوا يقولون لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة " (١).

ولقد كان التضارب في الآراء حول مرتكب الكبيرة سببا في ظهور طائفة المعتزلة حيث عرضت هذه المسألة على الحسن البصري ليبدى فيها رأيه .

ويحكى لنا الشهرستاني هذا الكلام أثناء كلامه عن أصول الرأىلية أتباع واصل بن عطاء فيقول في " القاعدة الثالثة القول بالمنزلة بين المنزلتين والسبب فيه أنه دخل واحد على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعبيدة الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل

* الإرجاء على معنيين أحدهما التأخير يقال أرجأت الشيء وأرجيته إذا أخرته يقول القرآن الكريم ﴿ قَالُوا لَوْجِهَ وَإِخَاهُ ﴾ أى أمهله وأخره . والثاني : إعطاء الرجاء ملخوذاً من الفعل (أرجى) مزيد (رجا) .

انظر : الملل والنحل ١/١٤٤ وما بعدها . تاريخ الفرق الإسلامية ص ١٩ وورد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لعنت المرجئة على لسان سبعين نبيا » قيل من المرجئة يا رسول الله ؟ قال : « الذين يقولون الإيمان كلام » يعنى الذين زعموا أن الإيمان هو إقرار وحده بون غيره .

انظر : الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٢٢ إلا أن الحديث بهذا النص لم أقف عليه وورد في المعجم الأوسط للطبرانى ١/١٦٢ حديث رقم ٧١٦٢ بلفظ : « لعنت القدر : على لسان سبعين نبيا منهم نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وإذا كان يوم القيامة ، وجمع الناس في صعيد واحد ، نادى مناد يسمع الأولين والآخرين أين خصماء الله فيقوم القدرية . (١) الملل والنحل ١/١٤٥ .

العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة . فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا ؟ فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال : وأصل بن عطاء أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل إلى أسطوانات المسجد يقرأ ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن اعتزل عنا وأصل فسمى هو وأصحابه معتزلة* . (١)

ووجه تقريره أنه قال : " إن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمنا وهو اسم مدح ، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمنا وليس بكافر مطلق أيضا ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكاره لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالدا فيها إذ ليس في الآخرة إلا الفريقان : فريق في الجنة وفريق في السعير ، لكنه يخفف عنه العذاب وتكون دركته فوق دركة الكفار " . (٢)

أما رأى الحسن البصري فهو أن مرتكب الكبيرة منافق . وقد حاول بعض الباحثين أن يحمل النفاق في كلامه على نفاق العمل لكن الدليل الذي نقل عن الحسن في هذه المسألة يدل على أنه يرى أن مرتكب الكبيرة منافق في التصديق . * قيل بالإضافة إلى التسمية السابقة إن هذه الفرقة كانت تطلق على الجماعة الذين اعتزلوا عليا ومعاوية - رضى الله عنهما - . وفي الطبري أن قيس بن سعد كتب إلى علي يقول : إن قبلي رجالا معتزلين . وقد سألوني أن أكف عنهم وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس . وقيل : إن السبب هو أنهم اعتزلوا الحرب بين الفريقين الخوارج وأهل السنة . انظر القرظي وابن خلكان نقلًا عن : الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٧١ (الهامش) تحقيق طه عبد الرؤف . (١) الملل والنحل ٥٥/١ . (٢) المرجع السابق ٥٥/١ وما بعدها .

فإنه يقول : إن إقدام الشخص على المعصية المفضية إلى العذاب يدل على أنه كاذب في دعوى تصديقه بما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - فإن من اعتقد من العقلاء أن في هذا حجر حية لا يدخل يده فيه فإن أدخلها علمنا أنه كان لا يعتقد . فهذا كلام رريح يدل على أن مرتكب الكبيرة منافق في التصديق في رأيه ، ولذا قيل إن الحسن رجع عن هذا الرأي (١).

وهكذا كانت مسألة مرتكب الكبيرة سببا في ظهور مدرسة الاعتزال* ، ولم يقف الخلاف عند هذا الحد بل امتد ليشمل مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية إلى آخره .

هذا ولقد كثر الجدل في العقائد الإيمانية في العصر العباسي واتخذ ألوانا لم تكن في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا الصحابة الأوائل . وفي هذا المناخ القائم على الجدل ظهر علم الكلام .

فقد حدث في آخر أيام الصحابة بدعة القول بالقدر كما ذكر الشهرستاني على أيدي "معبد الجهني" وآخرين (٢).

ويورد ابن سعد موقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - من مسألة القضاء والقدر في رواية عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن ابنى العاص أنهما قالا :

(١) انظر : عبد الحكيم على شرح العقائد النسفية ص ٧٥ نقلا عن : توضيح العقائد النسفية ١٤/١ شرح وتحليل د/ سليمان خميس .

* سمي المعتزلة أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد ووضموا القواعد التي سميت باسم الأصول الخمسة وهي التوحيد والعدل ، والوعد والوعيد ، المنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

انظر : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ١٢٤ .

(٢) انظر : الملل والنحل ٥٤/١ .

ما جلسنا مجلسا فى عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كنا به أشد
اغتيابا من مجلس جلسناه يوما جئنا فإذا أناس عند حجر رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - يتراجعون فى القرآن فلما رأيناهم اعتزلناهم ، ورسول الله - صلى
الله عليه وسلم - خلف الحجر يسمع كلامهم . فخرج علينا رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - مُقَضَّباً يُعَرِّفُ الغضب فى وجهه . حتى وقف عليهم فقال : أى قومي
بهذا ضلت الامم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وخسريهم الكتاب بعضه ببعض ،
إن القرآن لم ينزل لتضريوا بعضه ببعض ، ولكن يصدق بعضه بعضا ، فما عرفت
منه فاعملوا به ، وما تشابه عليكم فآمنوا به ثم التفت إلى وإلى أخى ، فغبطنا
أنفسنا أن لا يكون رأنا معهم » (١).

ولا شك فى أن هذا القول الجامع من الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبين
المنهاج السليم الذى ينبغى أن يسير عليه المسلمون حتى لا يتفرقوا ويفتتوا فى
دينهم وذلك عن طريق توجيه أصحابه إلى المنهج والطريق الذى ينبغى أن يكون
والذى يتمثل فيما يلى :

١ - النهى عن الجدل المودى للفتنة ، والبعد عما يناقض الفطرة والتوحيد .

٢ - عدم ضرب كتاب الله بعضه ببعض ، لأنه لا تعارض ولا اختلاف بين
نصوصه وآياته . (٢)

والأمر الذى لا شك فيه أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - منع أصحابه

(١) الطبقات لابن سعد ج٤ - قسم ١ ص ١٤١ فى ترجمة هشام بن العاص .
(٢) انظر : فضل علم السلف على الخلف لابن زجب العنبل ص ٧ وما بعدها . مدخل لدراسة
علم الكلام الدكتور سامى عطيف ص ١٦ .

من التنازع والجدل والمراء حتى لا تنزلق أقدامهم للهاوية ، لكنه لم يمنعه من البحث والنظر للوصول إلى الحق والنجاة من مزالق الشبهات .

ومع هذا فإن الخلفاء قد اتسع واشتد الجدل والنزاع حول مسألة القدر في عهد الخلفاء الراشدين ويبدو أن ذلك راجع إلى عدة أسباب من أهمها :

١ - انتقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الرفيق الأعلى فافتقد المسلمون شخصه الكريم وحجته البالغة التي كانت تطمئن قلوبهم .

٢ - ظهور بعض القضايا التي كانت تثير تساؤل الكثيرين وتبعث فيهم التطلع للوقوف على رأى في مشكلة القضاء والقدر .

٣ - دخول بعض الأفراد والجماعات حديثي العهد بالدين في رحاب الإسلام والذين لم يتمكنوا من فهم أصوله ولم يسعدهم الحظ بصحبة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - .

وهذا بلا شك يدلنا على أن علم الكلام لم ينشأ رغبة من المتكلمين في الجدل والمراء ، وإنما نشأ لمهمة أساسية وهي الدفاع عن الدين ودرء الخطر الذي كاد يزلزل قضايا الإسلام من نفوس المسلمين .

في هذا الإطار يذكر الدكتور أبو الوفا التفتازاني : إن علم الكلام الإسلامي لم ينشأ نتيجة سبب بعينه ، وإنما هو نتاج أسباب متضامنة وعوامل متضافرة حلت بالبيئة الإسلامية واقتضت وجوده على الصورة التي نراه عليها في تاريخ الفكر الإسلامي (١).

(١) انظر : علم الكلام وبعض مشكلاته ص ٦ .

عوامل نشأة علم الكلام

لقد كان لنشأة علم الكلام عوامل داخلية * وأخرى خارجية إلا أن بعض الباحثين يقصرون عوامل النشأة على العوامل الداخلية فقط ، والبعض الآخر يعزى ذلك إلى العوامل الخارجية ، وهناك فريق ثالث يقول بهما معا . إلا أنه من الصعوبة بمكان فصل العاملين عن بعضهما البعض فكلاهما متداخل مع الآخر وملزم له .

وفيما يلي سوف نعرض هذه الآراء مع نسبة كل رأى إلى من يقول به :

الرأى الأول : يعزى نشأة علم الكلام إلى أسباب داخلية بحتة ، وبالتالي يرى أنه نشأ نشأة داخلية تلقائية ويمثل هذا الرأى كرادى فووردينان وعمر فروخ .

يقول كرادى فو : " وتدل هذه الملاحظات على أن علم الكلام أو اللاهوت النظرى نشأ نشوفا تلقائيا فى حضن الإسلام ، وذلك قبل دخول الفلسفة اليونانية التى أدت كما تبين إلى توسيعه وتبسيطه وتنظيمه ... وإنما صدر عن المجادلات الأولى التى هزت المسلمين ... ومع ذلك فإنه كان مدنيا فى تكوينه الأول لا كابر الفقهاء ، ومن بينهم وأضع منهاج الرأى أبو حنيفة ، وقد قاوم الشافعى علم الكلام محتفظا فى منهاجه بالحد الأدنى من هذا العلم ، كما صنع الغزالى فيما بعد " (١).

ويشارك فى هذا الرأى أيضا ريتان (٢).

ويعزو ابن خلدون نشأة علم الكلام فى بعض جوانبه إلى تفسير المتشابه من

القرآن الكريم .

* المقصود بالعوامل الداخلية التى نبعث من داخل البيئة الإسلامية ذاتها ، وبالعوامل الخارجية ما هو عكس ذلك .

(١) الغزالى لكرادى فو ص ٢٢ وما بعدها نقلا عن : دراسات فى الفكر الفلسفى الإسلامى للدكتور حسام الدين الألويسى ص ٨٢ .

(٢) انظر : ابن رشد والرشدية ص ١١٦ نقلا عن: المرجع السابق .

يقول ابن خلدون توجد في القرآن الكريم آيات متشابهة يلتبس معناها على القارئ لذلك نشأ : " خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مشارها من الآي المتشابهة فدعا ذلك إلى النقص والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث بذلك علم الكلام " (١).

وقد ذهب إلى ما ذهب إليه ابن خلدون كل من حنا الفاضل و خليل الجرجي إذ يقولان إذا فهمنا بعلم الكلام النظر في العقائد الإيمانية لمجرد فهم النصوص التي تحدها ، فنستطيع أن نعود إلى النواة الأولى للإسلام ونجد أن أكثر العلوم نشأت من القرآن وحوله " (٢).

من هنا نرى أن ابن خلدون ودينان وكرادي فو يرون أن علم الكلام نشأ نشأة تلقائية ، ولم يعتمد على أسباب خارجية . والقول بأن علم الكلام نشأ حول القرآن الكريم والدفاع عنه أمر يتفق عليه كل من يقول إن علم الكلام نشأ نشأة تلقائية .

ولقد ذهب عمر فروخ في كتابه " تاريخ الفكر العربي " إلى أن علم الكلام نشأ نشأة داخلية معزياً ذلك إلى أربعة أسباب :

١ - الفضول العقلي .

٢ - التشدد في المبادئ .

٣ - التفكير السياسي .

٤ - إقناع غير العرب .

(١) المقدمة ص ٤٢٧ . وذهب إلى ذلك أيضاً الدكتور عامر النجار في كتابه علم الكلام ص ٥٧ .
والدكتور أبو الوفا التفتازاني في كتابه علم الكلام وبعض مشكلاته ص ٨ وما بعدها .
(٢) تاريخ الفلسفة العربية ١٧١/٨ .

ولكن يبدو أن السبب الأخير قد يجعله من القائلين بالآثر الخارجى لعلم الكلام .

الرأى الثانى : يرى أن نشأة علم الكلام ترجع إلى أسباب خارجية فقط ، ويمثل هذا الرأى الدكتور على سامى النشار* حيث يقول : " وعلم الكلام بحث فلسفى ؟ إنه حقا يختلف عن الفلسفة المشائية الميتافيزيقية فى كثير من أصولها ، ويستمد من القرآن مادته ، ولكنه كان فى جوهره بحثا ميتافيزيقيا . كيف نوفق إذن بين قيام هذا العلم على أسس فلسفية ، وبين قولنا إن الإسلام لم يدع إلى قيام فلسفة ميتافيزيقية ، حتى ولو قامت على أصوله ؟ هنا مشكلة بدء الفلسفة الإسلامية الميتافيزيقية أو نشأة التفكير الفلسفى الإسلامى " (١) .

ويرى الدكتور سامى النشار أن العوامل الخارجية التى أدت لنشأة علم الكلام هى اليهودية والمسيحية والفلسفة اليونانية والمذاهب الغنوصية الشرقية . أما العوامل الداخلية فهى عوامل سياسية ولغوية واقتصادية .

الرأى الثالث : يقول بهما معا أى بالعوامل الداخلية والخارجية ويمثل هذا الرأى كارديت وفتواتى وجولد تسيهر (٢) .

وفيما يلى سوف نتحدث عن كل من العوامل الداخلية والخارجية لنشأة علم الكلام .

* أشار إلى ذلك الدكتور حسام الدين الأومى فى كتابه دراسات فى الفكر الفلسفى ص ٨٤ مع أن الدكتور النشار قال بتقدير العوامل الداخلية حيث ذكر فى كتابه نشأة الفكر الفلسفى ص ٦١ " ... وهذا يدعو إلى القول بأهمية العوامل الخارجية مع تقدير العوامل الداخلية " .

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور سامى النشار ص ٦٠ .

(٢) نقلا عن : دراسات فى الفكر الفلسفى الإسلامى للدكتور حسام الدين الأومى ص ٨٢ ، ٨٦ .

أولا : العوامل الخارجية وتتمثل في :

١ - طبيعة القرآن الكريم :

تعرض القرآن الكريم بجانب دعوته إلى التوحيد لأهم الفرق والديانات* التي كانت منتشرة في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - فرد عليهم ونقض أقوالهم فكان طبيعيا أن يسلك علماء المسلمين مسلك القرآن الكريم في الرد على المخالفين** . فسلما جدد المخالفون وجوه الطعن جدد المسلمون طرق الرد .

ولاشك أن علم الكلام شأنه في ذلك شأن سائر العلوم الإسلامية فقد وجد منطلقا من القرآن الكريم منهاجا وموضوعا ، فمن الناحية المنهجية لا يتعارض النظر مع الإيمان ، فقد حث القرآن الكريم المسلمين على النظر والتبصر والاستدلال في ملكوت السموات والأرض .

قال - تعالى - : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ (١).

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٢).

﴿ لعلمكم تعقلون ﴾ (٣).

* كاليهود والنصارى والصائبية والمجوس قال - تعالى - : ﴿ إن الذين انحوا والذين همجوا والصائبين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يخصل بهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ﴾ الآية (١٧) من سورة الحج .

** لقد رد القرآن الكريم على المخالفين أمثال الدهرية القاطنين : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ جزء الآية (٢٤) من سورة البقرة .

كما رد على أولئك الذين ألجأ الكواكب وعينها كالصائبية قال - عز وجل - حكاية عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الظلمين ﴾ الآية (٧٦) من سورة الأنعام . ورد أيضا على منكري البعث قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ﴾ الآية (١٠٤) من سورة الأنبياء .

وما هذا الذي أوردته إلا ضرب أمثلة ونكر نماذج وإلا فالآيات في هذا المقام لا تقف تحت العصر .

(١) جزء الآية (١١) من سورة النحل .

(٢) جزء الآية (١٢) من سورة النحل .

(٣) جزء الآية (٢٤٢) من سورة البقرة .

وفى نفس الوقت تم القرآن الكريم هؤلاء الذين لا يفكرون أو لا يعقلون ونمى
على التقليد والمقلدين دون تفكير * .

ولا جدال فى أن الأنبياء أسوة وقدوة لمن أرسلوا إليهم فقد جاء إيمان أبى
الأنبياء سيدنا إبراهيم - عليه السلام - بعد نظر عقلى حيث رفض عبادة الأفلين
فجاء إيمانه بالذى فطر السموات والأرض إيماناً عن يقين .

قال - عز وجل - : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى
فلما أفل قال لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل
قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس
بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برئء
مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً
وما أنا من المشركين ﴾ (١) .

ثم تخرج بعد ذلك من الإيمان إلى الاطمئنان حين سأل ربه أن يريه كيف
يحيى الموتى ؟

قال - تعالى - : ﴿ قال لو لم تؤمن بالى ولكن ليطمئن قلبى ﴾ (٢)

واقدر عرضت بعض السور القرآنية الحوار المنطقى الذى ورد لإفحام
المشركين . يقول الإمام الأشعرى : " وأما الكلام فى أصول التوحيد فمأخوذ أيضاً
من الكتاب . قال - تعالى - : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (٣) وهذا

* قال - تعالى - : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا
لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ الآية (٢١) من سورة لقمان .
(١) الآيات (٧٦ - ٧٩) من سورة الأنعام .
(٢) جزء الآية (٢٦٠) من سورة البقرة .
(٣) جزء الآية (٢٢) من سورة الأنبياء .

الكلام موجز منبه على الحجة بأنه واحد لا شريك له وكلام المتكلمين في الحجاج في التوحيد بالتمانع والتغالب فإنما مرجمه إلى هذه الآية .

وقوله - عز وجل - : ﴿ مَا اخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾^(١) إلى قوله - عز وجل - : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾^(٢) .

وكلام المتكلمين في الحجاج في توحيد الله إنما مرجمه هذه الآيات التي ذكرناها وكذلك سائر الكلام في تفصيل فروع التوحيد والعدل إنما هو مأخوذ من القرآن .^(٣)

وهناك كثير من النماذج التي تدل على أن قضايا علم الكلام وردت في القرآن الكريم كمسألة نشأة الإنسان ونشأة الكون والقضاء والقدر ومصير الكون وهذه المسائل التي عرضها الإسلام شغلت بال الإنسان منذ أن أدرك وجوده .

يقول الدكتور سليمان دنيا إن القرآن الكريم بحق : " خاض مع من أدهشهم جدة تعاليمه نقاشا ، قابل فيه الرأي بالرأي والدليل بالدليل .

وفي القرآن من هذا الحجاج ثروة علمية تكررت في مواضع منه بلسلوب لا يمل سماعه وترداده " .^(٤)

ويقول الدكتور يحيى هاشم : " لقد تصدى المسلمون لفهم كتابهم المنزل فهما له في ذاته : في قضية وجوده ، قديما أو محدثا ، وفي ما يضمه من آيات أتنفتح

(١) جزء الآية (٩١) من سورة المؤمنون .

(٢) جزء الآية (١٦) من سورة الرعد .

(٣) استحسان الفوف في علم الكلام رسالة ملحقة بكتاب علم الكلام للدكتور عامر النجار ص ٩٦ .

(٤) التفكير الفلسفي الإسلامي ص ٣٢٤ ، في علم الكلام للدكتور أحمد صبحي ١٢/٨ .

للفهم بأحكامها أو تتفلق عليهم بمتشابهها ، وفى ما تتضمنه الآيات من جوانب وأعماق : ظاهرا وباطنا تفسيرا وتؤلوا . وفى علاقة القرآن وموقفه العام من التفكير فى العقيدة . وفهما له فيما يدل عليه من مسائل العقيدة فى الإلهيات والنبوات والسمعيات والكونيات والجدل مع أرياب المذاهب المختلفة .

ولقد كان تصدى المسلمين لهذا الفهم بأنواعه أمرا نابعا من صميم علاقتهم بالقرآن وانتمائهم إليه ، وإيمانهم به ... وفى بحث الباحثين للقرآن تعرفوا على موقفه من التفكير فى العقيدة ، فوجدوا منه تشجيعا يدفعهم للنظر والاجتهاد المسترشد بهدى الله ، المستقل عن دعاوى الآباء ... وجدوا فى الآيات رؤوس مسائل ، كما وجدوا فيها طريقة نظر ، ووجدوا فيها قرارا برأى أو انفتاحا على بحث . ولقد تناولوه بالبحث فى كل ذلك أخذين بصريحه ، مجتهدين فى متشابهه ، مرتادين فيه إلى مواطن تبتعد عن أطره فى بعض الأحيان ^(١) .

ولقد ذهب البعض إلى أن القرآن بعيد عن علم الكلام معاد له ، بل مناقض له .. وهذه دعوى لا يسلم بها الكثيرون من الباحثين وأرياب التفكير قديما وحديثا . فقد ذكر ابن عساكر فى كتابه رواية عن الإمام القشيري أنه قال : " والعجب ممن يقول ليس فى القرآن علم الكلام والآيات التى هى فى الأحكام الشرعية نجدها محصورة والآيات المنبهة على علم الأصول نجدها توفى على ذلك وترى بكثير " ^(٢) . ويقول الزركشى أيضا فى هذا المقام : " وما من برهان ودلالة وتقسيم

(١) عوامل وأهداف نشأة علم الكلام فى الإسلام للدكتور يحيى هاشم ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ باختصار
نقلا عن : علم الكلام للدكتور عامر النجار ص ٣٦ .
(٢) تبين كذب المفتري ص ٢٥٩ .

وتحديد شئ من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله - تعالى - قد نطق به ، لكن أورده - تعالى - على عادة العرب ، دون دقائق طرق أحكام المتكلمين .

ثم يقول : " وأعلم أنه قد يظهر منه بدقيق الفكر استنباط البراهين العقلية على طرق المتكلمين " (١).

كما يقرر الدكتور سليمان دنيا : أن الدور الأساسي في نشأة علم الكلام كان للقرآن الكريم وينكر بقوة دعوى البعض أن القرآن يعوق النظر العقلي (٢).

والأمر لم يقتصر على اعتبار القرآن الكريم فقط أحد العوامل الأساسية التي أدت إلى نشأة علم الكلام . بل إن البعض يقرر ويضيف إلى ذلك أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - التي كانت عاملاً مساعداً في إيجاد علم الكلام إذ أن هناك بعض الأحاديث التي تعتبر أصولاً لمسائل كلامية (٣).

فقد ذكر الإمام البغوي عدداً من الأحاديث الصحاح في رؤية الله - سبحانه وتعالى - في الجنة منها :

قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : " إنكم سترون ربكم عياناً " (٤)
وقوله - عليه السلام - : " إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ... " (٥).

(١) البرهان ٢٤/٢ وما بعدها .

(٢) التفكير الفلسفي الإسلامي ص ٢٢٤ .

(٣) انظر : مقدمة شرح المقاصد للدكتور عبد الرحمن عميرة ٢٦/١ . علم الكلام للدكتور عامر النهار ص ٦٢ .

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٤١٩/١٣ كتاب التوحيد .

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٤١٩/١٣ كتاب التوحيد . الاعتقاد للبيهقي ص ٦٠ .

وذكر الإمام البغوي في مسألة القدر : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة ، قالوا : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وتدع العمل ؟ قال : لا تعملوا فكل ميسر لما خلق له » .^(١)

وذكر أيضا الإمام البغوي من الأحاديث الصحاح قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن أبي هريرة رضى الله عنه - أنه قال : « جاء ناس من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى النبي فسألوه إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به . قال : أوجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذاك صريح الإيمان » .^(٢)

وقال : يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ريك ؟ فإذا بلغه ، فليستعذ بالله ولينته .^(٣)

وقال : « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل : أمنت بالله ورسوله » .^(٤)

٢ - اختلاف الرأى حول التشابه في القرآن الكريم خاصة ما يتصل بالأمور الاعتقادية .

لقد كان عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعهد الخليفين الراشدين

-
- (١) مصابيح السنة ١٣٤/١ كتاب الإيمان باب القدر متفق عليه أخرجه البخارى في الصحيح ٢٢٥/٣ كتاب الجنائز ٣٣ ، ومسلم في الصحيح ٢٠٣٩/٤ كتاب القدر واللفظ للبخارى .
- (٢) مصابيح السنة ١٢٨/١ كتاب الإيمان فصل في الوسوسة وأخرجه مسلم في الصحيح ١١٩/١ كتاب الإيمان (١١) باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر (٥٨) الحديث (١٢٧/٢٠١) . (٢٠٢ / ١٢٧) واللفظ للبخارى .
- (٣) مصابيح السنة ١٢٨/١ متفق عليه أخرجه البخارى في الصحيح ٢٣٦/١ ، كتاب بدء الخلق (٥٩) باب صفة إبليس وجنوده (١١) الحديث (٢٢٧٦) ، ومسلم في الصحيح ١٢٠/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان الوسوسة في الإيمان (٦٠) الحديث (١٣٢/٢٠٩) .
- (٤) مصابيح السنة ١٢٨/١ أخرجه مسلم في الصحيح ١١٩/١ - ١٢٠ كتاب الإيمان (١) باب بيان الوسوسة في الإيمان (٦٠) الحديث (١٣٤/٢١٢) و(١٣٤/٢١٣) .

أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - من بعده عهدى تأسيس للعقيدة الإسلامية ، حيث لم تتفرق كلمة الأمة حول أية مسألة من مسائل العقيدة التى استوفاهما الله كاملة ، كما أنهم لم يحاولوا الخوض فى متشابه* القرآن الكريم .

وإذا كان البعض قد حاول الخوض فيه فى عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كما حدث من عبد الله صبيغ حين تتبع التشابه من القرآن الكريم وأخذ يسأل عنه ، ولعله كان يبغي الفتنة فإنه قد لقى من حزم أمير المؤمنين ما أذهب ما كان يجده برأسه ، فقد خسريه بعراجين النخل على رأسه حتى قال ذهب ما كنت أجد برأسى يا أمير المؤمنين .

وقد يرد تساؤل وهو لماذا لم ينزل القرآن الكريم كله محكما حتى يكفى المسلمين شر الافتراق ؟

يقول صاحب الكشف ردا على ذلك فى تفسيره لقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ (١)

* حيث إنه لا فرق عندهم بين آيات ظاهرها التشبيه ، وأخرى ظاهرها التنزيه . ولتقبلوا كل ما جاء به القرآن من غير أن يعقدوا مقارنة بين آياته . حيث إنهم أيقنوا وأمنوا أنه من عند الله ، ولينصرفوا إلى إصلاح أنفسهم ، والعمل على إصلاح غيرهم بهذا القانون الذى جاءهم به محمد - صلى الله عليه وسلم - من عند الله . ولقد كان إذا عن لأحدهم شبهة فى شئ لا يستشير عقله فى هذه الشبهة أو يستقل ببحثها ، ولكنه يرجع إلى الرسول - عليه السلام - يسأله عما حدث له والرسول بدوره يرشده إلى الحق ، ولهذا كانت نفوسهم راضية مطمئنة .

انظر : تاريخ الفرق الإسلامية للدكتور مصطفى الغرابى ص ١٢ .

(١) الآية (٧) من سورة آل عمران .

من عائشة رضى الله عنها قالت : تلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ﴾ فقال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فاولئك الذين سعى الله ، فأخذوهم » . صون المنطق والكلام للسيوطى ص ٣٩ .

يقول الزمخشري : " لو كان كله - أى القرآن - محكما لتعلق الناس به
لسهولة مأخذه ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر
والاستدلال ، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده
إلا به ، ولما فى التشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ،
ولما فى تقادح العلماء وإتباعهم القرائح فى استخراج معانيه وردّه إلى المحكم من
القوائد الجلية والمعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله " .^(١)

ويلا شك فإن وجود التشابه فى القرآن الكريم قد فتح بابا للتأويل والرأى
والجدل .

ينكر ابن خلدون أن وجود التشابه فى القرآن الكريم كان سببا رئيسيا فى
نشأة علم الكلام حيث وقع بعض المسلمين فى التشبيه والتجسيم " فدعا ذلك إلى
الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث علم الكلام ... وذلك أن
القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل فى أى
كثيرة ، هى سلوب (أى سالية عن الله التشبيه بالخلق) كلها وصريحة فى بابها ،
فوجب الإيمان بها ، ووقع فى كلام الشارع - صلوات الله عليه - وكلام الصحابة
والتابعين تفسيرها على ظاهرها . ثم وردت فى القرآن الكريم أى آخر قليلة توهم
التشبيه مرة فى الذات وأخرى فى الصفات " .^(٢)

فكان للسلف فى التشابهات رأى يخالف الخلف . فالسلف قد قوضوا الأمر
فيها لله - تعالى - مع اعتقاد التنزيه المطلق له - سبحانه وتعالى - قلله يد ، لأن
القرآن الكريم قال ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾^(٣) لكن هذه اليد لا يعلم حقيقتها
إلا هو .

(١) الكشف ٢٥٩/١ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٧ .

(٣) جزء الآية (١٠) من سورة الفتح .

ولقد أورد البيهقي عن يحيى بن يحيى أنه قال : كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال يا أبا عبد الله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ^(١) كيف استوى ؟ فاطرق مالك رأسه ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعا ، فأمر به أن يخرج ^(٢)

وفي هذا المجال يذكر الشهرستاني موقف السلف من التشابهات في القرآن الكريم فيقول إنهم قالوا : " نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعا أن الله لا يشبه شيئا من المخلوقات " . ^(٣)

ويقول الرازي في هذا المقام " إن هذه التشابهات يجب القطع فيها بلن مراد الله تعالى منها شئ غير ظواهرها . ثم يجب تفويض معناها إلى الله ، ولا يجوز الخوض في تفسيرها " . ^(٤)

يقول ابن خلدون : " ... ونفذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه ، ففريق أشبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملا بظواهر وردت بذلك فوقعوا في التجسيم الصريح ، ومخالفة أي التنزيه المطلق ... ، وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وآل قولهم إلى التجسيم " . ^(٥)

أما الخلف فقد رأوا أن التفويض لا يصلح في دنيا تتسع أفاقها ويكتسب فكرها طريقا جديدا في كل يوم فلولوا هذا التشابه من القرآن بحيث يتمشى مع

(١) الآية (٥) من سورة طه .

(٢) الاعتقاد البيهقي ص ٥١ وما بعدها .

(٣) الملل والنحل ١/ ١١٠ .

(٤) أساس التقديس ص ١٨٢ .

(٥) المقدمة ص ٤٢٨ .

فهمهم للصفات الإلهية ويحقق تنزيه الله - سبحانه وتعالى - عن شبه المخلوقين ،
وينفى عنه - عز وجل مشابهة المخلوقين له نفياً قاطعاً مستخدمين في ذلك ما يؤيد
وجهة نظرهم من قواعد اللغة العربية واستعمالاتها .

ففسروا الاستواء بالاستيلاء في قوله - تعالى - : ﴿ الرحمن على العرش
استوى ﴾ ^(١) أى الرحمن استوى على العرش فهو مالك للعرش لا جالس عليه
مبالغة في نفى المكانية عنه - سبحانه وتعالى - .

هذا ولا شك في أن التشابهات قد أخذت مجالا واسعا في علم الكلام
وارتبطت ارتباطا وثيقا بمبحث الصفات .

٤ - مسألة الإمامة :

لقد كان الاختلاف حول مسألة الإمامة بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - من أول الاختلافات بين المسلمين .

يقول الأشعري : " وأول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين - بعد نبينهم
صلى الله عليه وسلم - اختلافهم في الإمامة " ^(٢).

هذا ولا زال الانشقاق المذهبي بين المسلمين قائما بين أهل السنة والشيعة
والخوارج . ولم تكن مشكلة الإمامة وحدها هي المسألة السياسية التي آلت إلى
مبحث عقائدي . بل إن هناك مسألة أخرى تفرعت عن الإمامة ألا وهي مسألة حكم
مرتكب الكبيرة ، فقد أنتجت هذه المسألة أكثر من مبحث في علم الكلام كالاسماء
والأحكام " و" الجبر والإختيار " ... إلى آخره ^(٣).

(١) الآية (هـ) من سورة طه .

(٢) مقالات الإسلاميين ٣٩/١ .

(٣) انظر : في علم الكلام ١٧/١ وما بعدها .

وينبغي أن نذكر هنا أن بدايات الفرق الثلاث - الشيعة والخوارج والمرجئة - كانت سياسية محضة ، لأن سبب نشأتها هو أمر الخلافة الإسلامية ، إلا أنها قد اتخذت بعد ذلك طابعا دينيا محضا وتأثرت بمبادئ أجنبية متطرفة .

هـ - العصبية العربية :

لقد كانت العصبية من أسباب الخلاف بل إنها هي جوهر الخلاف الذي فرق شمل الأمة . فعلى الرغم من أن الإسلام قد حارب العصبية في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

من ذلك قول الحق - عز وجل - :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۖ ﴾ (١)

وقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » . (٢)

وقوله - أيضا - : « كلكم لأدم ، وأدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » . (٣)

(١) جزء الآية (١٣) من سورة الحجرات .

(٢) سنن أبي داود ٢٤٣/٥ حديث رقم ١٢١٠ إحداد وتطبيق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد .

(٣) موسوعة الأطراف ٤٥٢/٨ وأحاله على مسند الربيع ابن حبيب ٨/٢ . وتوجد رواية بلفظ آخر في مسند أحمد ٣٦١/٢ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى وفاجر شقى والناس بنو آدم وأدم من تراب ، لئلا يتنهن أقوام فخرهم برجال أو ليكنن أدون عند الله من عدتهم من الجملان التي تنفع بشفها النتن » .

ولقد اختلفت هذه العصبية فى عهد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وظلت هكذا ثم اتبعثت بصورة قوية فى آخر عهد الشهيد عثمان بن عفان - رضى الله عنه - .

وقد كان لظهورها أثر كبير فى الاختلاف بين " الأمويين " و " الهاشميين " أولا ، ثم الاختلاف بين " الخوارج " وغيرهم ثانيا ، فقد كانت القبائل التى انتشر فيها مذهب " الخوارج " من القبائل الربيعية ، لا من القبائل المخزمية .

وقد كان النزاع بين الربيعيين والمخزبيين معروفا فى العصر الجاهلى ويظهر الإسلام اختفى هذا المظهر حتى ظهر فى فرقة " الخوارج " (١).

ولا يعنى هذا أن العصبية قد عادت كما كانت فى الجاهلية قبل الإسلام ، فلا جدال فى أن الإسلام قد قضى على الجاهلية العصبية ، وعفى على آثارها ، لكن بعضا من آثارها كان مستترا تحت الرماد ، كلما حانت الفرصة ثار بخانه ، وعلا غباره . ولكن بصورة خفية أو مستترة وراء أسباب أخرى ظاهرة . وإن لم يكن السبب الرئيسى يخفى على ذى العين البصيرة .

(١) انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٢

ثانيا : العوامل الخارجية وتتمثل فى أمور كثيرة أهمها :

١ - مجاورة المسلمين لكثير من أهل الديانات القديمة ودخول بعضهم فى الإسلام .

فعندما اختلط المسلمون بغيرهم فى البلاد المفتوحة ، وكان هؤلاء أصحاب ديانات ونحل مختلفة من يهود ونصارى ومجوس وبراهمة وغيرها أظهروا آراء دياناتهم القديمة فى مظهر جديد وهو الدين الإسلامى . وأشاروا بين المسلمين ما كان يثار فى ديانتهم من الكلام فى الجبر والاختيار وصفات الله إلى آخره .

ولقد كان من هؤلاء الذين دخلوا الإسلام مَنْ هو حسن النية ، ومنهم من كان يصدر منه ذلك من سوء نية وخبث طوية ومن هؤلاء عبد الله بن سبأ اليهودى الذى ادعى الإسلام وظل على يهوديته واندس بين صفوف المسلمين يبيت سمومه ليثير الفتن بين المسلمين .

وكلفنا يعرف دوره الخبيث عندما بدأ بالتظاهر بحب الإمام على - كرم الله وجهه - بدعى أنه أحق بخلافة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من سواءه ، وأن نى تولى غيره الخلافة ظلما وعدوانا ، ولم يكتف بذلك بل غالى فى حبه حتى زعم أن الله حل فيه والعياذ بالله ، وطعن فى خلافة سيدنا عثمان - رضى الله عنه - وألب الثوار على قتله .

ولقد بونت - هذه الأحداث التى كان لها أكبر الأثر فى افتراق المسلمين وبيت الخلاف بينهم - كتب التاريخ والفرق .

فقد ذكر ابن حزم السبب فى خروج كثير من هذه الطوائف التى دخلت

الإسلام عندما قال : " والأصل في أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن
الفرس كانوا من سعة الملك ، وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطير في أنفسهم
حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا
لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب ، وكانت العرب أقل الأمم
عند الفرس خطرا تعاضهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام
بالمحاربة في أوقات شتى ، ففي كل ذلك يظهر الله - سبحانه وتعالى - الحق ...
فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - واستشناع ظلم علي - رضى الله عنه - ثم سلكوا بهم
مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام ... " (١).

وهذا الكلام وإن ورد كمثال على التشيع المنحرف كما فعلت " الحسينية "
اتباع ابن سبأ ، فإنه ينطبق أيضا على كثير من الطوائف الأخرى ، ففي كل فرقة
كان يوجد مَنْ هو على شاكلة هؤلاء " كابن الراوندي " في المعتزلة والمجسمة
والمجسمة في غيرهم . (٢)

ونظرا لدخول هؤلاء في الإسلام ونشر آرائهم القديمة تشعبت المذاهب
واتسعت دائرة الخلاف ، وتعرضت أصول العقيدة لما تخشى مفقده ، فحضر عن
ساعد الجد فريق من أئمة المسلمين المخلصين لدينهم للقيام بتصوير أصول الإسلام
وعقائده من الكتاب والسنة والاستدلال عليها بالأدلة العقلية والنقلية ، ثم الرد على
الشبه الواردة على إظهار زيفها وبطلانها . (٣)

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٩١/٢ .

(٢) انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ص ١٤ .

(٣) انظر : التفكير الفلسفي الإسلامي للدكتور سليمان دنيا ص ٣٢٧ .

إن المسلمين اضطروا إلى علم الكلام . وهذه الصورة من الحوار تبين كيف أنهم اضطروا إليه اضطارا دفاعا عن دينهم ؟ حيث : " أرسل ملك السند رجلا من السمنية - البولية - إلى هارون الرشيد ليقول له : إنك رئيس قوم لا ينصفون ، إن كنت على ثقة من دينك فوجه إلى من أناظره ، فإن كان الحق معك اتبعناك وإن كان معي اتبعتني ، فأرسل إليه الرشيد محدثا ، فلما وصل إلى الهند أكرمته الملك وأتى بعالم سمني ليناظره ، فسأله : أخبرني عن معبودك هل هو قادر على كل شيء ؟ فاجاب المحدث : نعم ، فسأله السمني : أمو قادر على أن يخلق مثله ؟ فقال المحدث : هذه مسألة من علم الكلام وهو بدعة وأصحابنا ينكرونها فصرفه الملك ، وأرسل إلى الرشيد بالأمر فاستاء وغضب وقال : أليس لهذا الدين من يناضل عنه ؟ فقال أحد رجال حاشيته : بلى يا أمير المؤمنين هم الذين نهيتهم عن الجدل ، والذين أودعهم السجون ، فأطلق الرشيد سراحهم لينتشروا في الأرض دفاعا عن الإسلام " (١).

بذا نشأ علم الكلام وتحددت موضوعاته نتيجة خلاف عقائد الإسلام مع المعتقدات الأخرى . فقد كان الصراع الفكري بين المسلمين ومن خالفهم أولا ، ثم بين الفرق الإسلامية بعضهم مع بعض هو العامل في نشأة هذا العلم بل في تحديد موضوعاته ، فانبثقت مشكلة " كلام الله " - على سبيل المثال - هل هو مخلوق أم غير مخلوق ؟ أم حدث نتيجة اختلاف الإسلام مع المسيحية حول دلالة " الكلمة " في وصف السيد المسيح - عليه السلام - .

٢ - ظهور الترجمة :

لقد كان للكتب الفلسفية المترجمة أثر واضح في الخلاف بين المسلمين . حيث

(١) في علم الكلام للدكتور أحمد صبحي ١٦/١ .

كثرت الترجمة في العصر العباسي خاصة في عهد المأمون والأمين عن التراث اليوناني ، وعكف على هذه الترجمات طائفة من المسلمين بالدراسة والاقتباس .
وقد اضطر المتكلمون إلى دراسة الفلسفة اليونانية والمنطق كي يتسلحوا بنفس أسلحة الخصم .

يقول الدكتور أبو الوفا التفنيزاني : لقد " ظهرت حاجة المسلمين منذ أواخر العصر الأموي إلى الاطلاع على المنطق اليوناني للاستعانة به في الرد على اليهود والنصارى الذين كانت ثقافتهم فلسفية يونانية ، فكان ذلك كله من الأسباب التي دعت إلى وجود علم الكلام ، باعتباره العلم المدافع عن العقائد الإسلامية بالحجج العقلية " (١) .

كما كانت مسألة الخلافة مصدر نزاع وخلاف بين المسلمين وكان من أثر ذلك ظهور الفرق الثلاث وهي :

١ - الشيعة : وهم يرون أن الخلافة بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هي من حق علي - كرم الله وجهه - ، ثم سلطته من بعده ، على النظام الذي اتبعوه فعلا في اختيار أئمتهم .

٢ - الخوارج : ويرون أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين .
٣ - المرجئة : وهؤلاء أرجأوا الحكم في شأن المتنازعين لله - تعالى - وكرهوا الخلاف الذي نشأ بينهما .

وعندما انتهى المسلمون من الفتح الإسلامي ظهرت أفكار كثيرة مجافية للصواب من أصحاب الديانات والنحل المختلفة التي دخلت الإسلام .

(١) علم الكلام وبعض مشكلاته ص ٢٢ .

هذا وقد كان العراق وخصوصا البصرة مسرحا لجميع الملل والنحل
فبينما كانت فرقة القدرية تقول بحرية الإرادة وكان أكبر دعايتها بالعراق
معبد الجهني وبلاد الشام غيلان الدمشقي . ظهرت فرقة أخرى وهي البيرية
تسلب إرادة الإنسان وكان أكبر دعايتها الجهم بن صفوان* .

في وسط هذه الاضطرابات الفكرية والمبادئ التي كوّنتها كل فرقة لها ميا
الله للمسلمين جماعة من المخلصين يشرحون عقائد الدين كما وردت في الكتاب
والسنة من أشهرهم الحسن البصري والإمام أبو حنيفة وأتباعه .

وفي أواخر القرن الثالث الهجري ظهر أبو منصور الماتريدي واشتغل بالرد
على أصحاب العقائد الهدامة الباطلة وتكونت على يديه فرقة الماتريدية .

وفي أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ظهر الإمام الطحاوي وأبو الحسن
الأشعري الذي أعلن انفصاله عن المعتزلة ووضع مبادئ فرقته وإليه تنتمي فرقة
الأشاعرة .

كما ظهر بعد ذلك الإمام الجويني والإمام الغزالي والفخر الرازي والإيجي
والبيضاوي والتفتازاني وغيرهم من العلماء .

٣ - استخدام الفلسفة

لقد هبت المعتزلة جاعلة معها وشغلها الشاغل الدفاع عن الدين والرد على
المخالفين باستخدام الطرق العقلية والبراهين النظرية . حيث كانت البلاد الإسلامية

* يقال إن الجهم بن صفوان تلقى هذه الفكرة عن الجعد بن درهم ، وأن الجعد هذا أخذها عن
أبان بن سميان . وأنه تلقاها عن طالوح بن أعصم اليهودي الذي كان معاصرا للنبي - عليه
الصلوة والسلام -

فى هذه الحقبة مسرحا لكثير من الآراء والديانات والنحل . وكان كل فريق يحاول بيان وجهة نظره وإبطال رأى الخصوم

من هنا تسلحت اليهودية والمسيحية بالنسفة فدرسها المعتزلة ليستطيعوا الدفاع والرد بنفس السلاح المستخدم من قبل الخصم (١)

ولقد ظل هذا العلم فى دائرة البدع عند السلف بأساليبه ومصطلحاته . وهذا يعنى أن نقد السلف لعلم الكلام لم يصدر عن انتقادهم المنهج العقلى ، لكدهم - أى السلف - كانوا يفضلون المقاييس الشرعية وهى عقلية أيضا . ومعنى هذا أنهم كانوا أهل نظر ودراية بالإضافة إلى كونهم علماء أثر ورواية (٢)

(١) انظر تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٤ وما بعدها ، وتاريخ الفلسفة العربية لعنا الفاخورى و خليل الجر ١٧٣/١
(٢) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٠٦/٢ وما بعدها

ثانيا : تطور علم الكلام :

لقد ظل علم الكلام نبتا لم يتكامل نموه وبناء لم يتشامخ علوه وإن كانت له بعض الإشارات التي بدأت مع بداية عصر الصحابة - رضوان الله - تعالى - عليهم - . وقد بدأ ظهور علم الكلام على أيدي المعتزلة . لكنه لم يصبح علما له أصوله وقواعده وكتبه ومصنفاته إلا في عهد الدولة العباسية* شأنه شأن غيره من العلوم التي لم يصنف لها** في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو عهد الخلفاء الراشدين من بعده .

يذكر طاش كبرى زادة أن مبدأ شيوع الكلام كان بأيدي المعتزلة والقدرية في حدود المائة من الهجرة .. لأن ظهور الاعتزال كان من جهة وأصل بن عطاء ، وكانت ولادته في سنة ثمانين للهجرة ووفاته سنة إحدى وثلاثين ومائة ، فيصير زمان طلبه للعلم وقدرته على الاجتهاد قد بدأ في حوالى المائة تقريبا (١).

* يؤكد ذلك ما ذهب إليه الشهرستاني حيث قال : " وأما رونق علم الكلام فابتدأه من الخلفاء العباسيين : هارون والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل " .

انظر : الملل والنحل ٣٧/١ تخريج فتح الله بدران .

** السبب في ذلك يرجع إلى انشغال المسلمين بتثبيت دعوتهم ودفاعهم عنها ضد أعدائها المتريصين بها هنا وهناك ، فلم تتح لهم فرصة الكتابة والتصنيف آنذاك فلقد شغلهم السيف عن القلم . وعندما استقرت الأمور واتسعت دائرة الدولة الإسلامية وأصبح للسيف رجاله المرابطون في الثغور والقلم والفكر رجاله الباحثون المتأملون . وترجمت الفلسفات الأجنبية إلى اللغة العربية واحتك العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى نوات الفلسفات والنحل المختلفة وكثرت المسائل العقيدية التي دار حولها جدل وتشعبت فيها الآراء ، كما واجه المسلمون في الأمصار التي فتحوها قضايا عقيدية وفقهية لم يكن لهم بها عهد في عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان للاجتهاد مكانته في معالجة مثل هذه القضايا . وألفت الكتب وصنفت التصنيفات في كل فن من الفنون .

وكان لعلم الكلام مكانته السامية بين العلوم في هذا الميدان فهو علم الدفاع عن العقيدة الحق في وقت حاول الطاعنون أن ينالوا من العقيدة كما تشعبت آراء المسلمين أنفسهم في بعض مسائلها .

انظر : العقيدة في ضوء النقل والعقل والقلب للدكتور عبد السلام عبيد ص ٤١ وما بعدها .
(١) انظر : مفتاح السعادة ١٦٦/٢ .

هذا ولقد مر علم الكلام بدورين هما :

الدور الأول : لم تختلط فيه مسائل العقيدة وقضاياها بالفلسفة . وكان النزاع فيها قاصرا على المتكلمين مع بعضهم البعض وكان أكثره بين المعتزلة وأهل السنة والجماعة .

وكان أول من ألف في علم الكلام هو " وأصل بن عطاء " مؤسس فرقة المعتزلة وله " كتاب المنزلة بين المنزلتين " و " كتاب الفتيا " و " كتاب التوحيد " .

ولقد حددت مؤلفات ابن عطاء المعالم الفكرية والأصول العامة لفرقة المعتزلة فلقد أنجز قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره ربود المعتزلة على الفرق الأخرى : الخوارج ، الجبرية ، والمرجئة ، والشيعة والماتوية (١).

وقد كان ذلك في أوائل القرن الثاني الهجري حيث توفي وأصل بن عطاء عام ١٣١ هـ .

ثم تبعه عمرو بن عبيد المتكلم المعتزلي المتوفى عام ١٤٢ هـ فقد ذكروا له كتابا في الرد على القدرية . وبعض متكلمي الشيعة مثل هشام بن الحكم وله كتب في الإمامة في الرد على المعتزلة .

وقريبا من هذا العهد ألف الإمام أبو حنيفة المتوفى ١٥٠ هـ " كتاب الفقه الأكبر " و " كتاب العالم والمتعلم " . وفي هذين الكتابين صرح بالكثير من مباحث علم الكلام .

كما نسب للإمام الشافعي كتاب باسم " الفقه الأكبر " .

(١) انظر : تيارات الفكر الإسلامي للدكتور محمد عمارة ص ٤٦ .

وفى القرن الثالث الهجرى ألف أبو منصور الماتريدى المتوفى سنة ٢٢٣هـ
" كتاب التوحيد " و" كتاب المقالات " و" كتاب أوهام المعتزلة " ردا على أصحاب
المقالات الباطلة .

ولما فى المذهب الاعتزالى من مظاهر البحث العقلى والاعتماد على أساليب
المنطق والجدل ، مالت إليه الطباع وكثر أنصاره ، وأصبح هو المذهب السائد من
بين المذاهب الكلامية .

يذكر طاش كبرى زادة أن مبدأ شيوع الكلام كان بأيدي المعتزلة والقدرية
فى حدود المائة من الهجرة ، وقد ثبت فى التواريخ الصحاح أن إحياء طريقة السنة
والجماعة كان فى حدود الثلاثمائة من الهجرة ، لأن ظهور الاعتزال كان من جهة
وأصل بن عطاء ، وكانت ولادته فى سنة ثمانين للهجرة ووفاته فى إحدى وثلاثين
ومائة ، فيصير زمان طلبه العلم وقدرته على الاجتهاد قد بدأ فى جوالى المائة
تقريبا ، ويظهر أيضا مذهب أهل السنة والجماعة بالسعى الجميل والإقدام المشهور
من جهة أبى الحسن الأشعرى فى حدود الثلاثمائة ، إذ كانت ولادته سنة ستين
ومائتين ، ودام على الاعتزال أربعمائة سنة ، فيكون علم الكلام بأيدي المعتزلة مائتى
سنة ما بين المائة والثلاثمائة (١).

ثم ألف أبو الحسن الأشعرى كتبا كثيرة فى هذا المجال منها " كتاب الإبانة
عن أصول الديانة " و" كتاب الشرح والتفصيل فى الرد على أهل الإفك والتفصيل " و
و" التبيين على أصول الدين " و" مقالات الإسلاميين " .

وقد كان الأشعرى فى كتبه يعتمد فى نصرته العقائد على مذهب السلف

(١) انظر : مفتاح السعادة ١٦٦/٢ وما بعدها .

بالأدلة العقلية ، وكان منهجه فى مجادلة المخالفين وخصوصا المعتزلة على النقل والعقل .

يقول طاش كبرى زادة : " ودفع الكتب التى ألفها على مذاهب أهل السنة ، وكانت المعتزلة قبل ذلك قد رفعوا رءوسهم فجرهم الأشعرى حتى دخلوا فى أقمار السمسم " (١).

ولقد استخدم الأشعرى فى محاربة المعتزلة نفس المنهج الذى استخدموه وهو النظر العقلى مما كان له أكبر الأثر فى إضعاف مذهبهم وإذلال طغيانه ، إلا أن سلطان السياسة كان له أثر كبير فيما ناله المذهب المعتزلى من القوة والسيادة أولا ، كما كان له أيضا أثر فى نزوله عن عرشه مرة أخرى (٢).

واليك صورة من الصور التى نقلها المؤرخون من جدل الأشعرى مع أبى على الجبائى أحد أئمة المعتزلة المتوفى عام ٣٠٢هـ تمثل روح مذهبه واتساق معلوماته وسعة أفقه . هذا مع العلم بأن الجبائى كان أستاذا للأشعرى قبل أن يترك الأشعرى الاتجاه المعتزلى .

تتناظر الأشعرى مع الجبائى يوما وسأله عن ثلاثة إخوة ماتوا : الأكبر منهم مؤمن برقى ، والأوسط كافر شقى ، والأصغر مات على الصفر ولم يبلغ الحلم . فقال الجبائى : أما الزاهد ويقصد به الأكبر ففى أعلى الدرجات ، وأما الكافر - الأوسط - ففى أسفل الدرجات : بناء على أن ثواب المطيع وعقاب العاصى واجبان على الله - تعالى - عند المعتزلة .

(١) مفتاح السعادة ١٥٢/٢ .

(٢) انظر : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للدكتور مصطفى عبد الرزاق ص ٢٩٠ .

وأما الصغير فمن أهل السلامة لا يثاب ولا يعاقب .

فقال الأشعرى : إن طلب الصغير درجات أخيه الأكبر فى الجنة ؟

فقال الجبائى : يقول الله - تعالى - : الدرجات ثمرة الطاعات .

قال الأشعرى : فإن قال الصغير : ليس منى النقص والتقصير فإنك إن أبقيتنى إلى أن أكبر لأطعمك ودخلت الجنة .

قال الجبائى : يقول البارى - تعالى - قد كنت أعلم منك أنك لو بقيت لعصيت ودخلت العذاب الأليم فى دركات الجحيم ، فإن الأصلح لك أن تموت صغيرا .

فقال الأشعرى : إن قال العاصى المقيم فى العذاب الأليم مناديا من بين دركات النار وأطباق الجحيم : يا إله العالمين ، يا أرحم الراحمين ، لم راعيت مصلحة أذى دونى وأنت تعلم أن الأصلح لى أن أموت صغيرا ولا أصير فى السعير أسيرا ، فماذا يقول الرب ؟

فبهت الجبائى وانقطع عن الجدل .^(١)

من خلال هذه المناظرة نقف على قيمة المنهج العقلى فى الاستدلال .

وعلى نفس الدرب سار القاضى الباقلانى فكتب فى المقدمات العقلية التى تتوقف عليها أدلة الأشعرى مثل إثبات الجوهر الفرد ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ، وأن العرض لا يبقى زمانين ، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول .

ومن بهد الباقلانى جاء إمام الحرمين أبو المعالى العوينى فالف كتابه

" الشامل " ثم لخصه فى كتاب " الإرشاد " .

(١) انظر مفتاح السعادة ١٦٦/٢ .

وهكذا نجد أن أتباع الأشعرى لم يستخدموا شيئاً من المنطق ؛ لأنه كان فى نظرهم جزءاً من الفلسفة التى كانوا يتحرجون منها رغم استعمالهم لتلك المقدمات العقلية وسميت هذه طريقة المتقدمين وترأس هذه الطريقة الباقلانى وإمام الحرمين . وقد جاء من بعدهم الإمام الغزالى والفخر الرازى لكنهما خالفاً منهج الباقلانى فيما قرره . وقررا أن بطلان الدليل لا يؤذن ببطلان المدلول ، لأنه قد يثبت بدليل واحد أو بجملة أدلة قد يظهر بطلانها . وسميت هذه الطريقة طريقة المتأخرين (١).

هذا هو الدور الأول الذى لم تحتك فيه مسائل العقيدة بمشاكل الفلسفة ، ولم تختلط بها قضايا علم الكلام ، وقد كان النزاع بين الفرق الإسلامية بعضها مع بعض وخصوصاً المعتزلة وأهل السنة .

الدور الثانى : لم يدم الأمر على ما كان عليه فى الدور الأول فقد جرت مستحدثات على البيئة الإسلامية غيرت النهج الأول حيث ترجمت الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية وتخصص فيها الفلاسفة الإسلاميون كالكندى والفارابى وابن سينا .

وقام هؤلاء الفلاسفة بشرح الدين على ضوء الفلسفة ، كما حاولوا التوفيق بين الدين والفلسفة رغم ما بينهما من تناقض . ولقد كان عملهم هذا دافعاً لكثير من المتكلمين للرد عليهم وكان على رأسهم الغزالى حيث ألف " مقاصد الفلاسفة " ثم كتب للرد عليهم " تهافت الفلاسفة " .

ولقد استعرض الغزالى ومن سار على دبره من المتكلمين المبادئ التى ذكرها

(١) انظر : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٩٤ .

الفلاسفة مما يتصل بالإلهيات وتحاملوا عليها وبالفرا في نقدها والرد عليها مما حدا بهم إلى خلط علم الكلام بالفلسفة .

ومن أشهر الكتب التي ألفت على هذه الطريقة " طوالع الأنوار " للبيضاوي و" المواقف " لعصم الدين الإيجي و" المقاصد " لسعد الدين التفتازاني .

يقول ابن خلدون : " ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم " (١) .

ولم يقتصر الخلط بين الفلسفة وعلم الكلام في هذه الكتب وأمثالها على مجرد حشو المسائل بعضها ببعض ، بل إن هذا الخلط قد تعدى إلى المنهج والموضوع فأصبحت الكتب الكلامية تصدر بالحديث عن المنطق والطبيعيات ثم الإلهيات . وكان هذا هو المنهج السائد ، أما بالنسبة للموضوع فقد تغير وأصبح هو الحديث عن الموجود أو المعلوم من حيث كونه متعلقا بإثبات الوجود الدينية .

يقول الدكتور عبد المعطي بيومي في هذا الصدد : " فالمنهج في هذه الكتب ، أصبح غير المنهج الذي كان متبعاً في الكتب الكلامية من قبل ، إذ أخذ أصحاب هذه الطريقة يرتبون كتبهم الكلامية كما ترتب الكتب الفلسفية عادة ، فيبدأون بالحديث عن المنطق والطبيعيات ، ثم يتحدثون في الإلهيات ويطيرون في ذكر المسائل الفلسفية والرد عليها .

وإذا كان المنهج قد تغير بهذا الشكل وشملت هذه الكتب موضوعات أخرى مع موضوعات علم الكلام ، فلم يكن بد من تغير الموضوع ذاته فبعد أن كان موضوع علم الكلام هو : ذات الله - سبحانه وتعالى - وصحته ، أصبح الموضوع

(١) المقدمة ص ٤٣٠ .

فى هذه الكتب هو : الوجود ، أو المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية حتى يشمل هذا الموضوع الجديد المسائل الفلسفية التى زانوها فى كتبهم الكلامية .^(١)

هذا ولقد حمل هذا الموضوع التوسع - فى المؤلفات الكلامية بسبب ذكر المسائل الفلسفية فيها - بعض المؤلفين إلى أن يقوموا بوضع كتب فى العقيدة والمنطق على هيئة منظومات ومتون يراعى فيها الاختصار كلما أمكن . يقول بعضهم :

من التطويل كنت الهمم فصار فيه الاختصار ملتزما^(٢)

ولا تزال هذه المختصرات تلقى عناية من الدارسين وبخاصة فى جامعة الأزهر مثل الخريدة ، وأم البراهين ، والسنوسية ، والجوهرة ، والرسالة الشمسية ... الخ .

وقد ترتب على خلط كتب علم الكلام بالمسائل الفلسفية أن قام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية بنشر عقيدة السلف على طريقة الحنابلة ومقاومة مذهب الأشعرى .^(٣)

ولقد ظهر اتجاه جديد فى علم الكلام قام على أساس النهضة الحديثة فى الفكر الإسلامى على يد جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ويتمثل هذا الاتجاه فى الآتى :

١ - عرض مسائل علم الكلام بطريقة جديدة تختلف عن طريقة القدماء إلى

(١) الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب ص ١٥٧ .

(٢) انظر : مقدمة الجبر للشيخ اللقانى نقلا عن : توضيح العقائد النسفية ٢١/١ .

(٣) انظر : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٩٤ .

حد كبير . وهذا يتضح فيما قام به جمال الدين الأفغانى فى كتابه " الرد على
الدهريين " حيث رد فى هذا الكتاب على الماديين مبينا أثر الدين فى المجتمعات
الإنسانية وأثر المادية فيها كما أوضح أن الدين ضرورى بصفة عامة والدين
الإسلامى بصفة خاصة .

ويمثل هذا الإتجاه الآن " وحيد الدين خان " فى أشهر كتبه الكلامية الحديثة
" الإسلام يتحدى " .^(١)

٢ - تناول علم الكلام بعيدا عن الخلافات بين المتكلمين والمشاكل الفلسفية
التي خلطت بها فى القرون السادس والسابع والثامن ، وذلك مثلما فعل
" محمد عبده " فى " رسالة التوحيد " حيث أخذ ما اتفق عليه الجميع ووفق
بينهم فيما اختلفوا فيه .

يقول محمد عبده : " بقيت علينا جولة نظر فى تلك المقالات الحمقى التي
اختلط فيها القوم اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق فى السير إلى مقصد واحد ، ثم
التقوا فى غسق الليل فصاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر ، فظن كل أن
الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده فاستمر* بينهم القتال ولا زالوا يتجاللون
حتى تساقط جلهم دون المطلب ، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه ، رجع الرشده
إلى من بقى وهم الناجون ، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعا على بلوغ ما أمّلوا
ولو افتهم الغاية إخوانا بنور الحق مهتدين ...

فلنأخذ ما اتفقوا عليه ، ونترد إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه " .^(٢)

(١) انظر : الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب للدكتور عبد المعطى بيو - ص ١٥٨ .
* استمر : أى اشتد .
(٢) رسالة التوحيد ص ٤٢ .

المبحث الثالث

موقف علماء الأمة من علم الكلام قديما

المبحث الثالث

موقف علماء الأمة من علم الكلام قديما

بالرغم من المكانة السامية التي يحتلها علم الكلام بين العلوم الشرعية ، فإن آراء العلماء حوله قد تعددت وتشعبت وتباينت ما بين مؤيد ومعارض وأخذ منه بقدر .

من ثم قال الإمام القشيري في رواية يرويها عنه ابن عساكر " والعجب ممن يقول ليس في القرآن علم الكلام والآيات التي هي في الأحكام الشرعية نجدها محصورة ، والآيات المنبهة على علم الأصول نجدها توفى على ذلك وترى بكثير (١) لذا لا بد لنا من وقفة نتعرف فيها على موقف العلماء من قضايا علم الكلام .

أولا : المؤيدون * : يتصدر هؤلاء المتكلمون القائلون بضرورة النظر في قضايا أصول الدين وإثباتها بالمعقل ، وذلك للدفاع عن قضايا الدين والنود عنها ضد شبهات المبطلين .

وفي هذا الإطار يقول ابن خلدون في مقدمته : " والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك - أي إلى المجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية - كلام أهل الإلحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية ، فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضتهم " (٢) .

(١) تبين كتاب المفترى لابن عساكر ص ٣٥٩ .
* يوجد في المصدر الحديث من يؤيد علم الكلام ويدافع عنه ويقرر مشروعيته وجدواه على الأمة مثل الدكتور يحيى هاشم فرغل وذلك من خلال كتابه " عوامل وأهداف نشأة علم الكلام " حيث أفرد فيه بحثا لهذه المسألة .
(٢) ص ٤٦٧ .

ليس هذا فقط بل إن الإيمان القائم على الدليل أقوى من الإيمان القائم على التقليد ، ولقد ساق المتكلمون الأدلة والبراهين على صحة موقفهم ، بل قد أفرد بعضهم مصنفات تتحدث عن أهمية النظر . نذكر منها على سبيل المثال استهلال " الماتريدي " كتابه " التوحيد " ببيان أن الطريق لمعرفة الدين يتم بالنظر القائم على العقل ، وكذلك كتابه " تلويحات أهل السنة " الذي ينطوي على مواضع كثيرة لتأييد استخدام النظر في الدين . ونجد للإمام " الأشعري " أيضا كتابا في " استحسان الخوض في علم الكلام " وضع فيه أهمية النظر في قضايا الدين ورد فيه على دعوى الحنابلة الذين ذموا علم الكلام ونهوا عن الخوض فيه .

وسار على درب " الإمام الأشعري " من جاء بعده " كالفارسي الباقلائي " و " إمام الحرمين الجويني " وغيرهما من أتباع المذهب الأشعري مؤسسين أهمية النظر في قضايا الدين .

وفي هذا المجال يقول إمام الحرمين : " أول ما يجب على المعامل البالغ باستكمال سن البلوغ أو العلم شرعا القدح إلى النظر الصحيح المفضي إلى العلم بحدوث العالم " (١) .

والواقع أن هذا الأمر - وهو النظر في قضايا أصول الدين - لم يكن حكرا على الأشاعرة فقط بل كان للمعتزلة فيه باع كبير حيث إنهم دعوا دعوة صريحة لأهمية النظر بل وتقديمه على السمع* وليست هذه مجرد دعوى دون دليل فتد وجئنا في مؤلفاتهم الكثير والكثير من ذلك " كالفارسي عبد الجبار " في كتابه

(١) الإرشاد ص ٢ حققه وعلق عليه د/ محمد يوسف موسى .
* مسألة تقديم العقل على السمع فيها خلاف بين المعتزلة والأشاعرة .

” شرح الأصول الخمسة ” و” المحيط بالتكليف ” هذا بالإضافة إلى أنه أفرد جزءاً أيضاً من كتابه ” المفتى ” لتأكيد هذه الدعوى جعل عنوانه ” النظر والمعارف على بيان أهمية النظر وأنه أول الواجبات على المكلف ” .

وسوف نورد نصاً آخر للقاضي عبد الجبار يؤكد أهمية النظر فقد قال :
” إن سأل سائل فقال : ما أول ما أوجب الله عليك ؟ فقل النظر المؤدى إلى معرفة الله تعالى ؛ لأنه تعالى لا يُعَرَفُ ضرورة* ، ولا بالمشاهدة فيجب أن نعرفه بالتفكير والنظر ” .^(١)

ونقل عن ” النظام ” و” الجاحظ ” المعتزليين أن الشك أول واجب على المكلف حتى يصل بعد ذلك إلى اليقين عن طريق الأدلة المؤدية لذلك .

يقول الجاحظ : ” قال أبو إسحاق نازعت من الملحدين الشاك والجاهد ، فوجدت أن الشاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود ، والشاك أقرب إليك من الجاهد ، ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شك ، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره ، حتى يكون بينهما حال شك ” .^(٢)

هذا وسوف نذكر بالفائدة المرجوة من دراسة علم الكلام حتى يتضح لنا لم اشتغل به العلماء ومدى اهتمامهم بما انطوى عليه من مباحث . وهذه الفائدة وتلك الثمرة تتمثل فيما يلي :

* ليس صحيحاً على إطلاقه ما ذهب إليه القاضي عبد الجبار حيث إن الله - تعالى - يعرف بالفطرة السليمة وإنما يحتاج للتفكير والنظر : إما لزيادة المعرفة ، وإما لأن فسدت فطرتهم نتيجة نشاطهم على الوثنية أو الأديان الباطلة ، وإما لحاجة أصحاب الملل الفاسدة .
(١) شرح الأصول الخمسة ص ٣٩ حقه د/ عبد الكريم عثمان .
(٢) كتاب الحيوان ٢٥/٦ وما بعدها

١ - الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان . قال - تعالى - :
﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ ^(١) ولا شك أن
إيمان المستدل أقوى من إيمان المقلد الذى يكون عرضة للشكوك التى لا يستطيع
دفعها ، لأنه لا يملك الدليل على صحة إيمانه .

٢ - إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة ، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة .

٣ - حفظ قواعد الدين من أن تزلزلها شبه المبطلين .

٤ - أنه تبنى عليه العلوم الشرعية ، فإنه أساسها وإليه يؤول أخذها
واقْتباسها .

٥ - صحة النية والاعتقاد . إذ بها يرجى قبول العمل وغاية ذلك كله الفوز
بسعادة الدارين * ^(٢)

وإذا كان الفوز بالسعادة فى الدارين هو الغاية الكبرى والفائدة العظمى من
دراسة علم الكلام ، فإننا نستطيع أن نعزى ذلك إلى كون هذا العلم مفضيا إلى
معرفة الله - تعالى - بصفاته وما يجب له . ما يستحيل عليه والتصديق بالرسول عن
طريق اليقين اعتمادا على الدليل لا انسياقا وراء التقليد .

وما أروع ما قاله محمد عبده فى هذا المقام فقد قال : " الغاية من هذا العلم
القيام بفرض مُجْمَع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له ، مع

(١) جزء الآية (١١) من سورة المجادلة .

* ومن هنا فإن دراسة العقيدة هى أول الواجبات لدى الإنسان العاقل : لأن عقيدة المرء هى
ميزان سلوكه وأخلاقه ، والوازع الدينى هو معيار الاستقامة فى الحياة الدنيا ، كما أن البداية
فى كل حضارة هى العقيدة التى تحدد الهدف وتحكم السلوك وتوجه المسيرة . ومن هنا جاء
مقولة " ليس بالخيز وحده يحيا الإنسان " انظر : فى نور العقيدة الإسلامية للدكتور محمد
أحمد المسير ص ٩ .

(٢) انظر : المواقف للإيجى ص ٨ ، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ٢٢/١ وما بعدها
المقدمة لابن خلدون ص ٤٣٢ .

تزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تضمن به النفس اعتمادا على الدليل لا استرسالا مع التقليد حسبما أرشدنا إليه الكتاب . فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون ، وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه تحصيلًا لليقين بما هدانا إليه * (١).

لكل ما تقدم فإن أصحاب هذه الاتجاه يرون أن علم الكلام هو أعلى مرتبة بين العلوم إذ " إن موضوعه أعم الأمور وأعلاها ، وغايته أشرف الغايات وأجداها ، ودلائله يقينية يحكم بها صريح العقل ، وقد تأيدت بالنقل وهى الغاية فى الرثافة ، وهذه هى جهات شرف العلم لا تعدوها فهو إذا أشرف العلوم " (٢) . وبه تتحقق النجاة من الهلاك بل وتتأكد السعادة الأبدية وعلم تتحقق من وراء دراسته هذه الغايات وتتحصل من وراء الاشتغال به هذه الأهداف جدير بأن يهتم به وحقيق بأن يكون محل اشتغال العلماء خاصة وأن القرآن الكريم كتاب الله قد اشتمل على الكثير من الآيات التى تحت على النظر والتفكر* . والتى منها على سبيل المثال قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وفي الأرض لآيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (٣).

كما أن فى السنة النبوية المطهرة ما يدعو إلى الحث على النظر والتفكر . حيث روى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » (٤).

(١) رسالة التوحيد ص ٢١ .

(٢) المواقف للجيجى ص ٨ .

* انظر ذلك بالتفصيل عند الحديث عن موقف الشيخ محمد الغزالي من علم الكلام .

(٣) الآيةان (٢٠ . ٢١) من سورة الذاريات .

(٤) أورده الفخر الرازى فى تفسيره ٤٥٨/٩ ، وكذلك أورده الإمام السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١٩٥/٢ ومزاه إلى ابن حميد وابن أبى الدنيا فى التفكير وابن المنذر عن عائشة - رضى الله عنها - .

وروى بلفظ آخر : « ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمل فيها » (١).

فدعا بالويل والثبور على من لم يفكر ويتأمل في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار . وكان ذلك عندما نزلت هاتان الآيتان : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقلنا عذب النار ﴿ (٢).

ثانيا : المعارضون : وهم القائلون بتحريم الاشتغال بقضايا علم الكلام مستثنين إلى أن الخوض فيها تترتب عليه مضرة بالغة ، وأن الدين نهى عن الاشتغال به ، كما أن السلف الصالح والتابعين من بعدهم اتفقوا على أن علم الكلام بدعة كان لها أثر كبير في تفريق كلمة المسلمين وتشيت وحدتهم .

وأشهر هؤلاء المعارضين هم أئمة الفقه وأهل الحديث كالإمام الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل ، وقد أورد ابن تيمية جملة من هجومهم على علم الكلام في كتابه درء تعارض العقل والنقل (٣).

ولقد حرم أهل الحديث من السلف علم الكلام جملة وذكروه دون تفصيل كالخطابي في " الفنية " وابن قتيبة في " تلويل مختلف الحديث " وجمع الهروي الكثير من ذلك في كتابه " ذم الكلام " (٤) وقد جمع هذا التراث السيوطي في كتاب له وهو " صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام " يعبر عنوانه عن رأى مؤلفه .

(١) أورد الفخر الرازي في تفسيره ٤٥٨/٩ .

(٢) الآيتان (١٩٠ ، ١٩١) من سورة آل عمران .

(٣) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١٤٥/٧ وما بعدها تحقيق د/ محمد رشاد سالم .

(٤) انظر : صون المنطق للسيوطي ٦٨/١ وما بعدها ، وتلويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢ وما بعدها نقلا عن : المدخل إلى دراسة علم الكلام للدكتور حسن الشافعي ص ٣٦ .

١ - أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يترك أمراً من أمور الدين إلا ووضحه وأتم بيانه بما ينبغي أن يكون ، وأن الدين قد كمل في حياته - عليه الصلاة والسلام - وقرت عينه به ، عندما نزل قول الحق - عز وجل - : ﴿ لليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (١).

كما أن الكتاب والسنة فيهما الغنى عن أي مصدر آخر لمعرفة الله - عز وجل - وإثبات توحيده وصفاته وأسمائه الحسنی ، وأن الكتاب قد نزل تبياناً لكل شيء قال - تعالى - ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ (٢).

كما أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - : لم يترك شيئاً من أمر الدين وقواعده وأصوله وشرائعه وفروعه إلا بينه وبلغه على كماله وتماه ولم يؤخر بيانه عن وقت الحاجة إليه ، إذ لا خلاف بين فرق الأمة أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال . ومعلوم أن أمر التوحيد وإثبات الصانع لا تزال الحاجة ماسة إليه أبداً في كل وقت وزمان ولو أخر عنه البيان ، لكان التكليف واقعاً بما لا سبيل للناس إليه وذلك فاسد غير جائز . (٣)

وعلى ذلك فإن الحق - جل وعلا - قد استوفى أصول الدين في الكتاب ووضحها الرسول - عليه أفضل الصلاة والسلام - . وبذا فإنه لم يكل الناس إلى عقولهم في شيء من الدين .

٢ - أثر أصحاب هذا الاتجاه الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون من عزوف عن البحث والنظر في الدين : لأنهم رأوا أن النظر العقلي في أمور الدين

(١) جزء الآية (٣) من سورة المائدة .

(٢) جزء الآية (٨٩) من سورة النحل .

(٣) صون المنطق والكلام للسيوطي ٩٥ وما بعدها .

” لو كان خيرا لما فات النبي - صلى الله عليه وسلم - وتكلموا فيه . (قالوا إن الأمر لا يخلو) من وجهين : إما أن يكونوا علموه فسكتوا عنه ، أو لم يعلموه بل جهلوه ، فإن كانوا علموه ولم يتكلموا فيه وسعنا أيضا نحن السكوت عنه كما وسعهم السكوت عنه وسعنا ترك الخوض فيه كما وسعهم ترك الخوض فيه ، ولأنه لو كان من الدين ما وسعهم السكوت عنه . وإن كانوا لم يعلموه وسعنا جهله كما وسع أولئك جهله ، لأنه لو كان من الدين لم يجهلوه . فعلى كلا الوجهين الكلام فيه بدعة والخوض فيه ضلالة ” (١)

ويقول الإمام السيوطي في هذا المقام : ” ولو كان في الصحابة قوم يذهبون مذاهب هؤلاء في الكلام والجدال لعدوا في جملة المتكلمين ونقل إلينا أسماء متكلميهم ، كما نقل أسماء فقهاءهم وقرائهم وزهادهم ، فلما لم يظهر ذلك دل على أنه لم يكن لهذا الكلام أصل عندهم ” (٢)

٣ - سكوت الصحابة عن علم الكلام واستخدام مصطلحاته مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم لم يكن إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر (٣) . ولذلك قال الرسول - صلى الله عليه وسلم : « هلك المتنطعون قالها ثلاثا » (٤) أي المتعمقون في البحث والاستقصاء المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم .

(١) رسالة استحسان الخوض في علم الكلام للأشعري ملحقه بكتاب علم الكلام للدكتور عامر النجار ص ٩٥ ، وانظر رد الأشعري على هذه الحجج وغيرها .
(٢) صون المنطق والكلام ص ٩٦ .
(٣) انظر : قواعد المقائد للغزالي ص ٤٦ .
(٤) مسلم بشرح النووي ١٦/٢٢٠ .

كما أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يدع الناس في أمر التوحيد إلى الاستدلال بالأعراض والجواهر . فضلاً عما أدت إليه هذه المصطلحات من منازعات وخصومات بين المسلمين لعدم الاتفاق على مدلولاتها وتركيباتها فأصبح لكل فرقة تشقيقات كلامية تختلف عن غيرها . وظهرت الفرقة بين المسلمين .^(١)

٤ - أن الأئمة والفقهاء أنكروا الاشتغال به ، وقالوا إن الدين نهي عنه .

ومن القائلين بالتحريم الإمام الشافعي ومالك وأبو حنيفة وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف .^(٢)

فقد روى عن الإمام مالك - رضي الله عنه - أنه قال : إيكم والبدع . قيل : يا أبا عبد الله : وما البدع ؟

قال : أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكوت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان .^(٣)

ويذكر الإمام مالك الحكمة من تحريم علم الكلام فيقول : أرايت إن جاء من هو أجدل منه أيديع دينه كل يوم لدين جديد ؟
يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت .^(٤)

ولعل العلة نفي التحريم هو ما يترتب على الجدل من الفرقة والانقسام في الدين .

(١) انظر : صون المنطق والكلام للسيوطي ١٤٦/٨ نقلا عن : الفرق الكلامية للدكتور علي المغربي ص ١٠٧ .
(٢) انظر : إحياء علوم الدين ٩٤/٨ .
(٣) صون المنطق والكلام للسيوطي ص ٥٧ .
(٤) قواعد العقائد للفرزالي ص ٤٥ . إحياء علوم الدين ٩٥/٨ .

أما بالنسبة لموقف الإمام أبي حنيفة فقد نهى ابنه حماد عن الاشتغال

بالكلام .

قال له حماد : رأيك تتكلم ، فلم تنهاني ؟ قال : كنا نتكلم ، وكل واحد منا كان الطير على رأسه مخافة أن يزل صاحبه . وأنتم تتكلمون وكل واحد منكم يريد أن يزل صاحبه ويكفره ومن أرادته فقد كفر .^(١)

دالة التحريم عند الإمام أبي حنيفة لا ترجع إلى علم الكلام في ذاته ، وإنما ترجع إلى سوء استخدام المتكلمين للمناظرة والجدل ، حيث كان يستخدمه البعض للتخطفة والإلزام أو للوقوع في الخطأ والإلزام .

وبذا يصبح الجدل غاية في ذاته ولا يكون طريقا موصلا للحقيقة في القضية محل البحث . بل طريقا إلى قيام إقحام الخصم وتكفيره . وهذا بدوره يؤدي إلى حدوث الفرقة والشقاق والانقسام بين المسلمين .

ولقد كان الإمام الشافعي - رضى الله عنه - أكثر نكيرا على المتكلمين ، حيث جعل الاشتغال بعلم الكلام من أعظم الكبائر يظهر ذلك من خلال قوله : لأن يلقى الله - عز وجل - المبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشئ من علم الكلام . فهو - في رأى الإمام - يلى الشرك من حيث عظم الذنوب وأشدّها .

ولقد كان الإمام الشافعي - رضى الله عنه - شديد الحذر سبب الظن بعلم الكلام ويسوء نتائجه . فقال محذرا من الاشتغال به : " لو علم الناس ما في علم الكلام (١) انظر : إشارات المرام من عبارات الإمام للبياضى ص ٢٥ .

الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد " وقد أفتى في أصحاب الكلام بأن
" يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال هذا جزء من ترك
الكتاب والسنة وأخذ في الكلام " (١).

وقد روى عنه - رضى الله عنه - بيتان في هذا المقام هما : -

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذلك وسواس الشياطين (٢)

وفي هذا الإطار يذكر ابن عساكر أن كراهية الإمام الشافعي الخوض في
علم الكلام لا تنصرف إليه كعلم ، وإنما تنصرف إلى كلام القدرية وأهل
الأهواء والبدع ، كما يذكر أنه ناقش هؤلاء وأبطل أدلتهم وبلغ في علم الكلام - كما
كبرا (٣).

وكلام ابن عساكر فيه نظر .. فإن القول بأن الشافعي اشتغل بعلم الكلام
فضلا عن أن يكون بلغ فيه مبلغا كبيرا ، قول مرفوض تماما . مع ما عرفنا من
كراهية الشافعي لعلم الكلام وأهله . أما كون الشافعي ناقش المعتزليين ؛ فليس ذلك
دليلا على اشتغاله بعلم الكلام بوجه من الوجوه .

والإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - لم يختلف كثيرا عن سبقيه من
الفقهاء في موقفهم من الاشتغال بعلم الكلام ، بل ربما كان من أشدهم في هذا
الجانب .

(١) إحياء علوم الدين ٩٤/١ وما بعدها ، وقواعد العقائد ص ٤٤ وما بعدها ، وشرح العقيدة
الطحاوية ١٨/١ ، وتبيين كلب المفتري ص ٣٢ ، مفتاح السعادة ١٥٦/٢ .
(٢) نقلا عن : العقيدة الطحاوية ١٨/١ .
(٣) انظر ذلك بالتفصيل في تبيين كلب المفتري لابن عساكر ص ٣٤٢ وما بعدها .

فقد قال : " لا يفلح صاحب الكلام أبدا ، ولا تكاد ترى أحدا نظرا في الكلام إلا وفي قلبه دغل " أى مرض .

وقد بالغ في ذمه حتى أنه هجر العارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة وقال له : ويحك أأنت تحكى بدعتهم أولا ، ثم ترد عليهم ، أأنت تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث .

بل إن ابن حنبل كان أكثر تشددا عن سببه حيث أفتى بأن علماء الكلام زناقة (١).

ولا ندري لماذا فعل ابن حنبل هذا مع العارث المحاسبي ؟ مع أنه فعل مثما فعل المحاسبي حيث صنف كتابا في الرد على الجهمية .

وهنا ترد عدة تساؤلات : هل كان هؤلاء الأئمة على دراية بعلم الكلام ؟ وما المقصود بعلم الكلام وعلمائه في نصوصهم ؟ وما هي الأسباب الداعية لموقفهم هذا من علم الكلام ؟

والإجابة عن هذه التساؤلات نقول : إن هؤلاء الأئمة كانوا على دراية بقضايا علم الكلام . يؤكد ذلك مواقفهم السابقة في النهي عن الخوض* في قضاياهم .

والمقصود بعلم الكلام ذلك الجدل الذي كان يثار في عصرهم حول بعض

(١) قواعد العقائد ص ٤٥ ، إحياء علوم الدين ٩٥/١ ، وإشارات المرام ص ٣٧ ، تلبس إبليس ص ٨٢ .

* أخرج الهروي في كتاب " ذم الكلام " بسنده عن الشافعي قال : حكمي في أهل الكلام حكم عمر في صبيغ . دل ذلك منه على أن العلة في تحريم النظر في علم الكلام ما يخشى منه من إثارة الشبه والانجرار إلى البدع ، فحرمه قياسا على تحريم النظر في التشابه . ويعلق ويقول وهذا قياس صحيح فيكون الدليل على تحريم النظر فيه القياس على الأصل الذي قيس عليه علم الكلام ، وهو التشابه المنصوص على تحريم النظر فيه ، وهذا قياس لا يتطرق إليه من ينقض ولا معارضة . انظر : صون المنطق والكلام للسبطي ص ١٩ .

المسائل كالأقضاء والقدر وفتنة القول بخلق القرآن وما شابه ذلك بفرض الوصول
للحق وخدمة الدين بل يقصد الانتصار للنفس والاستعلاء على الآخرين وتعلق
الحكام ، وكل ذلك كان على حساب الدين .^(١)

والمقصود بعلماء الكلام هم أهل الأمواء والبدع والنزعات المجافية للقطرة
والتوحيد من شيعة وجهمية وغلاة المعتزلة والفلاسفة .

قال البيهقي : أراد بالكلام عن حديث الإمام الشافعي - رضى الله عنه - :
ما وقع فيه أهل الإلحاد من الإلحاد وأهل البدع من البدع .^(٢)

وقد كان الإمام الشافعي يطلق على المجادلين في القدر أهل الأمواء . وعلى
هذا يتضح أن مرادهم من علم الكلام - علم الأمواء - .

والمراد بعلماء الكلام المنتظمين الذين ذكروا في الحديث الذي رواه عبد الله
ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هلك
المنتظمون قالها ثلاثا .^(٣)

قال الإمام النووي أى المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم
وأفعالهم .^(٤)

وترجع الأسباب التي دفعت الأئمة (الفقهاء) إلى اتخاذ هذا الموقف وهو
(التحريم) من الاشتغال بعلم الكلام إلى ثلاثة أسباب إذ الباحث في أسباب هذا
الموقف يجد أنها متعددة ومتشعبة بعضها يرجع إلى موضوع علم الكلام ، وبعضها

(١) تبين كذب المفتري ص ٢٤٣ .
(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٤٥٨/١ ، تبين كذب المفتري ص ٢٤٣ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ٢٢٠/١٦ .
(٤) النووي على شرح مسلم ٢٢٠/١٦ .

يرجع إلى منهج البحث فيه ، وبعضها الآخر يكمن في القائمين عليه وفي توظيفهم*
لقضايا هذا العلم أو الهدف من البحث فيه . وفيما يلي سوف نتناول بشئ من
الإيجاز كل سبب من هذه الأسباب الثلاثة :

أما السبب الأول فيرجع إلى موضوع علم الكلام نظرا لخطورة الموضوعات
التي كان يتناولها هذا العلم ، وعظم الذخيرة فيها . وذلك أن الباحث إذا أخطأ في
مسألة نقض الرضوء بلمس المرأة الأجنبية ، أو وضع اليدين في الصلاة مثلا ، فلن
يترتب على ذلك كفر أو إلحاد أو خروج عن ملة الإسلام بخلاف البحث في بعض
مسائل علم الكلام . حيث إن منها ما يتعلق بالذات الإلهية والخطأ فيه يترتب عليه
الكفر والعياذ بالله .

ومن هنا كان خوفهم من فتح الباب على مصراعيه للبحث في مسائله كما
بين الإمام الشافعي - رضي الله عنه - في قوله لتلاميذه : تناظروا في شئ إن
أخطأتم فيه ، يقال لكم أخطأتم ، ولا تناظروا في شئ إن أخطأتم فيه يقال لكم
كفرتم (١).

وفي هذا المقام يذكر الدكتور عبد الهادي أبو ريذة سبب ابتعاد السلف عن
علم الكلام فيقول : " ولا شك أن خطورة مسائل هذا العلم وبقية مناهجه تحتاج إلى
ثقافة عميقة متنوعة ، وإلى عقلية راجحة وعلوم متعالية ومعارف كونية وإنسانية ،

* وهي عدم اعتبار علم الكلام علما يجب أن يدرس أو لعله أخرى وهي أن الصحابة والتابعين
- رضوان الله عنهم أجمعين - لم يتكلموا فيه . أخرج الهروي من طريق عبد الرحمن بن مهدي
قال : بخلت علي مالك وعنده رجل يسأله فقال : لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد لعن الله عمرا
فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام ، ولو كان الكلام علما لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما
تكلموا في الأحكام والشرائع . فالعلة هي كون السلف لم يتكلموا فيه .
انظر : صون المنطق والكلام ص ٣٢ ، ٥٧ .
(١) تبين كذب المفتري لابن عساكر ص ٣٤٤ .

وننتائج البحث فيه خطيرة بالنسبة لمن يتصدى للخوض فيه أو يقرأ مصنفاته ، ولذلك نجد " السلف " الأولين تباعدوا عنه ، خوفاً من مزالق الخطأ فى أمور الربوبية .
وحقائق الأمور الإنسانية (١)

وهذا كلام مرفوض من " أبى ريدة " ومن سار مساره ، فإن قارئ كلامه يظن أن الصحابة - رضوان الله عليهم - ثم التابعين إنما ذموا علم الكلام ولم يشتغلوا به ، بسبب قصور أفهامهم وغباء عقولهم ، أو أنهم لم يكونوا نوى عقول راجحة ، ولم يكن لديهم علوم متعالية ... إلى آخر هذا الكلام المرفوض .. والحق غير ذلك تماماً .. فقد كان الصحابة على فطرة سوية ، وأفهام قوية ، وعقول راجحة ، وذكاء فطرى سام . وكانت منزلتهم فى ذلك كله من نوع منزلة صاحب الرسالة - صلى الله عليه وسلم - ، وإن كان هو فى ذلك الفذ الذى لا يقاس به .. والحق أن الصحابة تركوا علم الكلام - وكذلك السلف - ليس لقصور فى عقولهم وأفهامهم ، بل لكل الذى أشرنا إليه قبل ذلك على لسان الغافى ومالك وغيرهم - رحمهم الله جميعاً - .

أما السبب الثانى فيرجع إلى منهج البحث فى علم الكلام . فقد كانوا يؤمنون - كما سبق أن أشرنا - بأن للعقل حداً يقف عنده ، كما أن للبصر حداً يقف عنده ، ومن هنا كان لابد من تأسيس علم الكلام على القرآن والسنة ويكون دور العقل دور العامل المساعد لإيقاظ منبهات الفطرة فى النفس لا دور المستقل بقضايا البحث فى مسائل علم الكلام (٢) .

(١) خطة مقترحة لتجديد علم الكلام ص ٢٥ بحث مقدم للندوة السنوية للجمعية الفلسفية بالقاهرة عام ١٩٩١م تحت عنوان " نحو علم كلام جديد " .
(٢) انظر : تبیین ذنب المفتى ص ٣٥١ .

هذا وسوف نتعرف على أسس منهج البحث كما ينبغي أن يكون عليه وكما يظهر لنا من خلال مناظرة للإمام الشافعي مع بشر المريسي .

دخل بشر المريسي على الإمام الشافعي - رضى الله عنه - فقال له الإمام : أخبرني عن ما تدعو إليه أفيه كتاب ناطق ، وفرض مفترض ، وسنة قائمة ووجب على الناس البحث فيه والسؤال ؟

فقال بشر : ليس فيه ما أطلقت إلا أنه لا يسعنا خلافه .

فقال له الشافعي : قد أقررت على نفسك الخطأ (١).

من خلال هذه المناظرة يتبين لنا أن المنهج الذي ينبغي أن يكون في علم الكلام والذي يرتضيه الإمام الشافعي - رضى الله عنه - وأئمة الفقه والحديث هو :

١ - الاعتماد على الكتاب والسنة حتى لا يذهب الاتباع ويحل محلله الابتداع ، ويشيع الفتور الديني حتى يكون هناك مجال لنيعر الادعاء على الشرع وقد أنشد في هذا المقام بيتين هما :

لم يبرح الناس حتى أحدثوا بدعا في الدين بالرأى لم تبعث بها الرسل
حتى استخف بدين الله أكثرهم وفسى الذي حملوا من حقه شغل
ولقد كان الفكر الغريب على البيئة الإسلامية هو سبب الفرقة بين المسلمين
والتلاحن فيما بينهم .

(١) انظر : صون المنطق والكلام ص ٢٠ ، ٦٣ .

ومن ثم قال الإمام الشافعى - رضى الله عنه - : " ما جهل الناس
ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس " (١)

أما السبب الثالث والأخير فيمكن في القائمين على علم الكلام وفي هدفهم
من البحث فيه وأن الجدل والمراء الناشئ منه كان سببا في تفرق المسلمين
واختلافهم وبث الشر في الأمة ، كما أن استخدام المتكلمين للمصطلحات الكلامية
التي لم ترد في الكتاب أو السنة كان سببا للمنازعات والخصومات بين المسلمين
وذلك لعدم الاتفاق على مدلولاتها حيث أصبح لكل فرقة تشقيقات كلامية تختلف عن
غيرها مما أدى إلى ظهور الفرقة بين صفوف المسلمين (٢)

وذلك باعتمادهم في برهمتهم على العقائد الدينية بالأدلة الجدلية المعقدة التي
يتعذر فهمها على عامة الناس مثل استخدام الجوهر الفرد في نصب الدلائل على
وجود الله ، حيث يعتمد المتكلمون فيه على مقدمات مطولة مشكوك في صحتها
ويصعب فهمها فضلا عن مجافاة هذه الاتجاه الجدلي للأدلة الشرعية التي ذكرها
القرآن الكريم (٣)

ويكفى هنا أن نتذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - والتي
كانت بسبب مشكلة من المشكلات التي نتجت عن علم الكلام والاشتغال به ، ومنهج
المتكلمين في تشقيق الكلام ، وخلق قضايا لم ينزل الله - تعالى - بها من سلطان ،
ولم يؤثر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والصحابة الكلام فيها .

وبالنسبة لمشكلة خلق القرآن يقول الرازي : إن الفتن العظيمة وقعت في ذلك

(١) انظر : صون المنطق والكلام ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ١٤٢/١ نقلا عن : الفرق الكلامية للدكتور علي المغربي ص ١٠٧ .

(٣) المرجع السابق ١٤٢/١ .

الزمان بسبب خوض الناس في مسألة القرآن ، وأهل البدع يستعانوا بالسلطان ، وقهروا الحق ، ولم يلتفتوا إلى دلائل المحققين ، فلما عرف انشاققي أن البحث في قضايا هذا العلم ما كان في ذلك الزمان لله وفي الله بل لأجل الدنيا والسلطنة .. أعرض عنه وذم من اشتغل به .^(١)

من خلال هذا العرض الموجز والسريع لأصحاب الاتجاه السلفي يتضح القصد من قولهم بالتحريم والهجوم الذي تعرض له علم الكلام والمتكلمون ، وقد نقله كثيرون كالشيخ الهروي في كتابه " ذم الكلام " والإمام السيوطي في كتابه " صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام " . والخلاف الذي تار في قضايا بعض العصور حول تحريم الاشتغال به وتبديع الخوض في قضاياها ، إنما يرجع في حقيقة الأمر إلى أسباب تاريخية لهذا العلم ، كما يرجع أيضا إلى الصراع التقليدي الدائم بين النصيين والعقليين في تاريخ كل ثقافة دينية .

وبالرغم من ذلك فإن علم الكلام كان دائما موضع العناية واعتداد ، باعتبار أن الإيمان أساس السلوك على المستوى الفردي ، وباعتبار أن التصور الفكري العقائدي هو أصل النظم التطبيقية في حياة الجماعة .^(٢)

هذا ولا شك في أن مسألة قدم العالم وحديثه كانت من أكبر المشاكل التي تار فيها جدل كبير بين المتكلمين والفلاسفة ، ولقد كانت نشأة الجدل في هذه القضية دخيلة على العقيدة الإسلامية فلم توجد في الفكر الإسلامي إلا بعد ترجمة

(١) مناقب الإمام الشافعي ص ١٠٢ نقلا عن : مدخل لدراسة علم الكلام للدكتور سامي عفيفي ص ١٠٦ .

(٢) انظر : في الفلسفة مدخل وتاريخ للدكتور كمال جعفر بالاشتراك ص ١٧٢ نقلا عن : مدخل لدراسة علم الكلام ص ١٠٦ .

الفلسفة اليونانية للغة العربية واشتغال بعض مفكرى الإسلام بها بل وتأثرهم بها
فى كثير من آرائهم وبخاصة الفارابى وابن سينا حيث ذهب كل منهما إلى القول
بقدم العالم تبعا لأرسطو معتمدين فى ذلك على الأدلة العقلية التى تؤدى فى نظرهم
إلى استحالة القول بحدوث العالم .

لذا كان من الطبيعى أن يتصادم هذا القول فى البيئة الإسلامية مع
عقيدة الخلق المستمدة من الكتاب والسنة التى قررت أن العالم مخلوق ومصنوع
لله - عز وجل - .

ومن ثم كان الاعتقاد بحدوث العالم ووجوده بعد أن لم يكن هو الاعتقاد
السائد الذى استقر فى عقيدة المسلمين وأطمأنت إليه قلوبهم . لذا فقد اهتم
المتكلمون بالتدليل على حدوث العالم من خلال آيات القرآن الكريم وبالأدلة العقلية
ونجد ذلك واضحا عند أصحاب الاتجاه الأشعرى . ليس هذا فقط بل نجد ما يماثل
هذا الاستدلال عند أحد الفلاسفة الإسلاميين وهو الكندى الذى اتفق مع جمهور
المسلمين فى القول بحدوث العالم واستدل على ذلك بأدلة عقلية صرفة . وأخرى
مستمدة من القرآن الكريم (١).

لذا كان من الطبيعى إزاء ما تقدم أن يشمر المتكلمون عن مساعد الجدل للرد
على الفلاسفة فى هذه القضية المهمة ، ولقد حمل لواء الرد عليهم فى إطار عقلى
الغزالى فى كتابه " تهافت الفلاسفة " حيث فند آراء الفلاسفة فى مجال الإلهيات
وبيّن تهافتهم فى مسائلها محددا أخطاءهم التى وقعوا فيها بعشرين مسألة كفرهم

(١) انظر : مذكرة فى التصريح الفلسفى للدكتور صلاح عبد المليم نقلا عن : مدخل لدراسة علم
الكلام ص ١٠٧ .

فى ثلاث منها وفسقهم فى الباقىات . وذكر أن السبب فى خطئهم هذا هو اعتمادهم فىها على العقل دون الشرع فى حىن أن العقل بدون الشرع قاصر عن الوصول إلى الحق والىقین فى هذه المسائل . ومن هنا كان ظهور أصحاب الاتجاه المعتدل أو المتوسط بین هؤلاء وأولئك .

تعقیب على موقف المعارضین لعلم الکلام :

لاشك فى أن تعمیم الحكم على علم الکلام بأنه محرم فى ذاته أمر خطیر لا یمكن قبوله على سبیل الإطلاق . لأن القائلین بذلك ربما یفعلون الهدف الأساسى لنشأة علم الکلام والعوامل التى أدت إلیه من ناحية أنه یدافع عن العقیة الإسلامیة ضد أعدائها ، یدرأ الخطر عنها عن طریق رد شبهات المبتدعة والمنحرفین والملاحدة .

١ - هذا بالإضافة إلى أن علم الکلام لم ینشأ رغبة من المتکلمین فى الجدل والمراء كما یدعون* أو - على الأقل - لم یکن كذلك عند جمهرتهم . لكن جدت أحداث على الساحة الإسلامیة دفعتهم إلى الاشتغال بعلم الکلام دفاعاً عن الدین ودرأ للخطر عن الإسلام وقضاياه .

یقول ابن خلدون : " والمتکلمون إنما دعاهم إلى ذلك - أى الحجاج - العقائد الإیمانیة بالأدلة العقلیة - کلام أهل الإلحاد فى معارضات العقائد السلف بالبدع النظریة ، فاحتاجوا إلى الرد علیهم من جنس معارضتهم " (١).

* إنهم أکرموا على ذلك أکرامها وأضطروا إلیه اضطراباً ولم یکن ذلك عن زیغ فى القلب أو ابتغاء للفتن فلم ینشأ هذا العلم من فراغ أو إرضاء للأهواء . ولا یکن أيضاً مجرد ترعوى ، وإنما حتمته مواجهة الإسلام للديانات والنحل المختلفة .
(١) المقدمة ص ٤٦٧ .

٢ - يجب التفرقة بين علم الكلام الذى يعتمد على الكتاب والسنة فى عرض مسأله ، وبين علم الكلام الذى يضم بين جنباته من الفلسفة ما لا يتفق مع الكتاب والسنة . هذا بلا شك يجب إنكاره ورده .

والذى دعانى إلى ذلك هو أن علم الكلام الذى ذمه الإمام الشافعى - رضى الله عنه - إنما هو المتناول لمذاهب المخالفين الذين أدخلوا فى قضايا الإسلام أشياء مخالفة لما يعتقد السلف الصالح من الصحابة والتابعين وجمهور الأمة . وكانت كتب هؤلاء المخالفين تحت اسم علم الكلام .

وردا على ما تمسك به المعارضون لعلم الكلام من أنه لم يؤثر عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو الصحابة - رضوان الله عليهم - أن خاضوا فى مسائل علم الكلام .

أقول : إن قضايا علم الكلام لم تثر* فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا فى عهد الصحابة - رضوان الله عليهم - لذا لم يؤثر عنهم الخوض فيها .

وردا على قولهم إن هذا العلم بدعة وإن الهدف من البحث فيه هو الجدل والمراء الذى كان سببا فى تفرق كلمة المسلمين واختلافهم وبحث الشر فى الأمة الإسلامية ، وإن المتكلمين استخدموا مصطلحات كلامية لم ترد لا فى الكتاب* إلا أن النهى عن علم الكلام قد ورد عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقينا وإن لم يرد بصيغة " علم الكلام " فذلك بدهى لأنه لم يكن فى ذلك العصر شئ يسمى بذلك . لكن ورد نهيه - صلى الله عليه وسلم - عن الجدل ، وعن البحث فى المسائل المشكوكات . وذلك ثابت فى نهيه أصحابه - رضوان الله عليهم - عن البحث فى القدر ، وغضبه الشديد من جدالهم حول ذلك . واستدلال كل منهم بما فى القرآن الكريم . حتى قال : « تضربون القرآن ببعضه ببعض » . بهذا هلكت الأمم قبلكم » وعلم الكلام كله قائم على ضرب كتاب الله بعضه ببعض من حيث إن كل فريق يستدل على رأيه بشئ من كتاب الله - تعالى - .

ولا فى السنة وكانت سببا فى المنازعات نظرا لعدم الاتفاق على مدلولاتها مما أدى إلى ظهور الفرقة بين صفوف المسلمين .

أقول إن العلوم الإسلامية لم تنشأ فى عهد الصحابة - رضوان الله عليهم - بل تكونت بعد عصرهم نظرا لانشغالهم بالفتوحات الإسلامية .

كما أن استخدام مثل هذه المصطلحات كان من أجل فهم العلم وتفسيره . والمتكلمون ليسوا بدعا فى هذا فإن شأن علم الكلام شأن كثير من العلوم كال تفسير والحديث وغيرهما من العلوم فى استخدام المصطلحات . فالصحابة والتابعون لم يستخدموا ألفاظ الفقهاء كالملة والمعلول والقياس ولم يكن استعمال الفقهاء لها على سبيل البدعة فكذلك المتكلمون .

فى هذا الإطار يذكر ابن عساكر عن الإمام القشيري السبب الذى من أجله استخدم المتكلمون الألفاظ الخاصة بهم كالجوهر والعرض كما يبين أن الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم - لم يستخدموا ألفاظ الفقهاء كالملة والمعلول والقياس ولم يعد ذلك بدعة ، وكذلك النحاة فى استخدامهم لألفاظ خاصة بهم .

فيقول : " وإنما استعمل المتكلمون هذه الألفاظ على سبيل التقريب والتسهيل على المتعلمين . والسلف الصالح وإن لم يستعملوا هذه الألفاظ فلم يكن فى معارفهم خلل . والخلف الذين استعملوا هذه الألفاظ لم يكن ذلك منهم لطريق الحق مبيانة ولا فى الدين بدعة .

كما أن المتأخرين من الفقهاء عن زمن الصحابة والتابعين لم يستعملوا ألفاظ الفقهاء من لفظ الملة والمعلول والقياس وغيره ثم لم يكن استعمالهم لذلك بدعة

ولا خلو السلف عن ذلك كان لهم نقصا ، وكذلك شأن النحويين والتصريفيين ونقله
الأخبار في ألفاظ تختص بها كل فرقة منهم ^(١) .

لذلك نقول للمعارضين لعلم الكلام بحجة أن الصحابة والتابعين - رضوان
الله عليهم - لم يتكلموا فيه ، إن هذه مكابرة منكم . ونرد عليهم بما ذكره الإمام
الأشعري في كتابه " استحسنان الخوض في علم الكلام " حيث قال ردا على
المعارضين لعلم الكلام : " يقال لهم فالنبي - صلى الله عليه وسلم - لم يتكلم في
النور والوصايا ولا في العتق ولا في حساب المناسخات ولا صنف فيها كتابا كما
صنعه مالك والثوري والشافعي وأبو حنيفة فليزعمكم أن يكونوا مبتدعة ضللا إذا
فعلوا ما لا يفعله النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وقالوا ما لا يقله نسا بعينه
وصنفوا ما لم يصنفه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وقالوا بتكفير ^(٢)
بخلق القرآن ولم يقله النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وفيما ذكرنا كفاية لكل
عاقل معاند ^(٣) .

وهذا الرد المفهم من قبل الإمام الأشعري في غاية الإقناع .

وختاما يمكن تبرير سكوت القرآن والحديث عن ذكر هذه المسائل بسهولة .
فالأمة الإسلامية لم تواجه من المصاعب والشكوك التي أدت آخر الأمر إلى إثارة
هذه المسائل وإلا لأقدم النبي - صلى الله عليه وسلم - على وضع الأسس اللازمة
لحلها .

لذا لم يكن أمام الفقهاء والمتكلمين في التماس حلها من سبيل ، سوى

(١) تبين كذب المفتري ص ٢٥٧ وما بعدها .

(٢) رسالة استحسنان الخوض في علم الكلام ملحقة بكتاب علم الكلام للدكتور عامر التجار
ص ١٠٢ .

قياسها على ما صرح به القرآن الكريم والحديث . وواجب على كل مسلم عاقل ،
كما يقول الأشعرى أن يرد هذه المسائل إلى مجموع المبادئ التي أقرها العقل أو
الحس أو البديهة .^(١)

مما تقدم نرى أنه من التجنى أن يصود علم الكلام على أنه مرادف للمراء
والجدل وأن المتكلمين أصحاب زيغ وبدع ، إذ لو كان الأمر كذلك ما اشتغل بعضهم
بعلم الكلام كأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل - رضى الله عنهم - حتى يوصفوا
بما وصف به المتكلمون .

وهذا الكلام لا يقال جزافا فقد ورد في تبين كذب المفتري حكاية عن الإمام
الشافعي - رضى الله عنه - تثبت أنه بلغ في علم الكلام مبلغا كبيرا فقد ورد : عن
أبي أحمد محمد بن روح يقول كنا على باب الشافعي نتناظر في الكلام فخرج علينا
الشافعي فسمع بعض ما كنا فيه فخرج عنا فما خرج إلينا إلا بعد سبعة أيام ثم
خرج فقال ما منعتني من الخروج إليكم علة عرضت . ولكن لما سمعتم تتناظرون
فيه أتظنون أنني لا أحسنه لقد دخلت فيه حتى بلغت منه مبلغا وما تعاطيت شيئا إلا
وبلغت فيه مبلغا حتى الرمي كنت أرمى بين الفرضيين فأصيب من عشرة تسعة ،
ولكن الكلام لا غاية له تناظروا في شئ إن أخطأتم فيه ية ال لكم أخطأتم ،
ولا تناظروا في شئ إن أخطأتم فيه يقال كفرتم .^(٢)

ويبدو أن الإمام الشافعي - رضى الله عنه - ترك المناظرة في علم الكلام
عند الاستغناء عنها ، وذهب القدرية وكأته في ذلك يسير على ما رواه عمر بن

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية للدكتور ماجد فخري ص ٢٨٧ ترجمة الدكتور كمال اليازجي .
(٢) انظر : تبين كذب المفتري لابن عساكر ص ٢٤٢ وما بعدها ، تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي
زهرة ص ٤٥٧ .

الخطاب - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : « لا تجالسوا أهل القدر ولا تفتاحوهم الحديث » (١).

وقد سار على ذلك الأئمة قديما فكانوا إذا احتاجوا إلى علم الكلام أجابوا بالكتاب والسنة على إثبات القدر لله - عز وجل - وأنه لا يجرى في ملكوت السموات والأرض شيء إلا بحكم الله وتقديره وإرادته .

ولا غبار على هذا الكلام في نقاش أو مناظرة القدرية . إلا أننا بالإضافة للكتاب والسنة في حاجة إلى الاستدلال بالعقل (٢).

وأیضا فقد كان للإمام أبي حنيفة - رضى الله عنه - كتاب " الفقه الأكبر " و" العالم والمتعلم " وكان أكثر موضوعات هذين الكتابين في علم الكلام . وبالمثل الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - فقد صنف كتابا في الرد على الجهمية .

هذا ومما لا شك فيه أن لعلم الكلام مهمة جليلة ، وهي الدفاع عن العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه ضد المنحرفة المبتدعين بالأدلة الثابتة بالكتاب والسنة مع عدم إغفال شأن العقل كدليل في ذلك .

ولقد حث القرآن الكريم على النظر والتفكير وإعمال العقل في ملكوت السموات والأرض والنفس الإنسانية . هذا بالإضافة إلى أن القرآن الكريم نعى على التقليد والمقلدين .

ليس هذا فقط بل إن علماء الإسلام من هذا المنطلق كرهوا التقليد الأعمى

(١) ورد في مسند أحمد ١ / ٣٠ ، ومسند أبي يعلى ١ / ٢١٢ حديث رقم ٢٤٥ ، ٢٤٦ بلفظ : « لا تجالسوا أهل القدر ولا تفتاحوهم » .

(٢) انظر : تبیین کتب المفتری ص ٢٤٤ .

الفرازي . حيث اشترط في سبيل الوصول إلى الحقائق أن " يكون الباحث حر
المقل مستقل التفكير وقد ندد بكل تفكير مؤسوم بالتبعية والمحاكاة ، وبلغ من
حرصه على هذا المبدأ أنه ختم كتابه في المنطق " معيار العلم " بدعوة القارئ إلى
أن يدرسه بروح الفهم لا بروح التقليد " (١) .

ويجدر بنا في نهاية الأمر أن نكوّن موضوعين نذكر أسباب النفور من علم
الكلام والتي تكمن في أنه :

- ١ - يعد مسنولاً في نظر الكثيرين عن النزاع والتفرق والاختلاف .
- ٢ - أنه يورث الجدل والمراء ، حيث تكفر الفرق بعضها البعض ، وتزعم كل
فرقة منها أنها هي التي تعبر عن رأي الإسلام (٢) .
- ٣ - أن أدلة المتكلمين لا تعتبر ملزمة لليقين ، وأن الشر ظهر منذ نزع
المتكلمون وفشت صناعة الكلام .
- ٤ - أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - والصحابة - رضوان الله عليهم
أجمعين - لم يسلكوا مسلك المتكلمين في تقسيماتهم وتبقيقاتهم ، بل عدلوا عنه
لعلمهم أن الجدل مثار الفتن ومنبع التشويش . وأنه لا حاجة إلى من هداه الله نود
الإيمان إلى الخوض فيما خاض فيه المتكلمون فإن منهج كل فرقة مع الخصوم
يستثير الأحقاد ولا حاجة إلى شئ من ذلك لجمهرة المؤمنين (٣) .

(١) الشخصيات الإسلامية لعبد اللطيف كليكن ص ١١ ويعلق المؤلف حيث يقول : " استن
الفرازي لنفسه نرجاً مستقلاً فهو طالب حق وحكمة ، شعاره : " لا تعرف الحق بالرجال ، بل
اعرف الحق تعرف أهله " .

(٢) انظر : المنقذ من الضلال ، إجماع المومنين عن علم الكلام ، الاقتصاد في الاعتقاد للفرازي
نقلاً عن : كتاب في علم الكلام للدكتور أحمد صبحي ٢١/١ .

(٣) انظر : إجماع المومنين من مجموعة القصود العوالي ص ٢٦٧ نقلاً عن : المرجع السابق .

ويعلق الدكتور أحمد صبحي فيقول : " ولا يدفع المتكلمون عن أنفسهم هذا الاتهام . فكتاب الفرق يستهلون كتبهم بالحديث : " ... إن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي .^(١) وهم يهدفون باستهلال مقالاتهم بهذا الحديث أن يكون ذلك تبريرا لتكفير خصومهم ثم أن يجعل كتاب كل فرقة فرقته وحدها دون غيرها الناجية ، ولقد جنت بهم ذلك إلى شئ غير قليل من الشطط في التحامل على الخصم ، وإلى التعسف في تشعيب الفرق حتى يكون مجموعها مماثلا للعدد المذكور في الحديث ، غافلين عما تخبئه الأيام بعد القرن الرابع من ظهور فرق جديدة ، فضلا عن تشويه كل فرقة لعقائد غيرها حتى توهم بالضلال الموجب للتكفير ولأن تصحيح من أهل النار " .^(٢)

وهذه آفة علم الكلام إلا أنها لا توجب كونه مسئولاً عن تفرق المسلمين ؛ لأن دور علم الكلام هو أنه سجلٌ لمعتقدات هذه الفرق ولم يكن علة لها . فالمسلمون قد اختلفوا شيئا ومذاهب ، وقام علماء كل فرقة يدافعون عن مذهبهم . فجاء علم الكلام حصيلة لذلك كله ، فيجب علينا أن لا نتجاهل ما كان ، وإنما يجدر بنا أن نعلمه ونحيط بظروفه وملابساته وأن نتعمق في فهم دوافعه بنزاهة وموضوعية .

فقد نشأ علم الكلام كما ذكرنا لعوامل خارجية :

١ - دفاعا ممن أتوا قوة الجدل عن دينهم ضد ديانات غلبت على أمرها

ولكنها لم ترضخ لغلبيتها .

(١) الحديث بتمامه في سنن الترمذي ٢٦/٥ كتاب الإيمان حديث رقم ٢٦٤١ وورد بالفاظ أخرى ٢٥/٥ حديث رقم ٢٦٤٠ . كما ورد أيضا في سنن أبي داود ١٩٧/٤ مع اختلاف في اللفاظ .

(٢) في علم الكلام للدكتور أحمد صبحي ٢١/١ وما بعدها .

٢ - كما نشأ لعوامل داخلية سياسية وغير سياسية كانت فى تاريخ الإسلام
أمرا مقضيا لا وفقا لمنطق الجبر بمفهومة الغيبى ، وإنما وفقا لمنطق العلم الذى
تسوده فكرة الحتمية .

وإذا كان مما يؤثر فى المسلم ويسن إليه ويحز فى نفسه أن يجد تفرقا بين
إخوانه فى الدين فإن هذا لا يعنى أن كل اختلاف يعتبر سيئا . إن الرأى الموحد
فى أغلب الأحيان يكون تعبيرا عن الجمود المؤدى إلى شلل التفكير .

وقد كان ذلك سببا من أسباب تدهور الفكر فى الغرب فى العصور الوسطى
عندما فرضت سلطة كهنوتية نفسها وحسية على الفكر .^(١)

هذا وقد حدثت مشاكل كلامية بسبب الجدل فى مسألة خلق القرآن ولا ننسى
المحنة التى نتجت عن ذلك للإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - ، وكذلك مسألة
قدم العالم وحدوثه بين المتكلمين والفلاسفة . لكن هذا لا يقلل من أهمية علم الكلام
وشرفه على سائر العلوم إذ إنه أصل لغيره منها .

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢٢/١ .

تراجع بعض علماء الكلام عن الخوض فيه :

لقد رأى السلف الصالح والتابعون من بعدهم أن علم الكلام بدعة حتى إن بعض علمائه الذين خدعهم بريق الجدل ، وأخذ بلبهم بهرجة الزائف كانوا في أواخر حياتهم يتوبون منه ، ويوصون غيرهم بالبعد عنه وعدم الاقتراب من منهله . ويمكننا اعتبار ذلك سببا من الأسباب التي اعتمد عليها المعارضون لعلم الكلام . يروى عن أحمد بن سنان أنه قال : كان الوليد بن أبان الكرابيسي * خالي ، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه : تعلمون أحدا أعلم بالكلام مني ؟

قالوا : لا .

قال : فتتهموني .

قالوا : لا .

قال : فإني أوصيكم بتقبلون ؟

قالوا : نعم .

قال : عليكم بما عليه أصحاب الحديث ، فإني رأيت الحق معهم (١) .

ولقد أنشد الشهرستاني شعرا في الفلاسفة والمتكلمين فقال :

لعمري قد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واهما كف حائر على نقن أو قارعا سن نادم (٢)

* هو الوليد بن أبان الكرابيسي معتزلي من علماء الكلام من أهل البصرة له مقالات في تقوية مذهب الاعتزال . نسبته إلى بيع الكرابيس تولى عام ٢١٤ هـ . انظر : تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤٧١/١٣ .

(١) المرجع السابق ٤٧١/١٣ وما بعدها .

(٢) نقلا عن : دفاع عن العقيدة والشرعية للشيخ محمد الغزالي ص ١٢٠ .

وخان أبو المعالي الجويني يقول : لقد جلت أهل الإسلام جولة وعلومهم
وركبت البحر الأعظم وغصت في الذي نهوا عنه كل ذلك في طلب الحق ، وهربا من
التقليد ، والآن قد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق .

عليكم بدين المجائز فإن لم يدركني الحق بلطيف بره ، فأمرت على دين
المجائز ، ويختم عاقبة أمرى عند الرحيل بكلمة الإخلاص فالويل لابن الجويني .
وكان يقول لأصحابه يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام
يبلغ بي ما تشاغلتم به .^(١)

ويعقد الغزالي مقارنة بين أدلة القرآن الكريم وأدلة المتكلمين فيقول : " فادلة
القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به أحاد
الناس ، ويستضر به الأكثرون ، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي
الرضيع والرجل القوي ، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة
ويمرضون بها أخرى ولا ينتفع بها الصبيان أصلا .^(٢)

ومن الأدلة القوية على ما نحن بصدد أن أبا الحسن الأشعري - رحمه الله
تعالى - وهو إمام الأشاعرة ، ويعتبر مؤسس أكبر مدرسة كلامية يتبعها الجمهرة
الكبيرة من الأمة ، ومذهبه الأكثر شيوعا بين المذاهب الكلامية ... هذا الإمام من
أئمة المتكلمين قد رجع عن كل معتقداته وآرائه الكلامية وبرا منها ورجع إلى عقيدة
السلف الصالح التي يمثلها في عصره الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله -
وقد سجل الإمام أبو الحسن رجوعه عن ذلك في آخر مؤلفاته وهو كتاب
" الإبانة " .

(١) تلبس إبليس لابن الجوزي ص ٨٤ وما بعدها .
(٢) إلجام المواقف عن علم الكلام للأشعري ص ٢٠ .

وعلى نفس الطريق سار الإمام الرازي ، فقد رجع عن آرائه الكلامية ، ويرى
من الاشتغال بعلم الكلام .

يقول الرازي فيما ينقله عنه ابن تيمية : " لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج
الفلسفية ، فما رأيتها تشفى غليلا ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة
القرآن ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي " (١)

ومن وصيته التي أعلانا على تلميذه " إبراهيم بن أبي بكر الأصفهاني " قوله :
" لقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة
تساوي الفائدة التي وجدتتها في القرآن العظيم " .

ومن نظمه في عجز العقل :

نهاية إقدام العقول عقل وأكثر سعي العالمين ضلال

ولم نستفد من ب هثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا (٢)

ويقول صاحب " المنار " : " وقد اطلعنا على نظريات فلاسفة اليونان وغيرهم
من الفلاسفة وعلماء الكلام . فوجدنا أكثرها في باب الإلهيات أوهاما " (٣)

وموافق هؤلاء المائدين من علم الكلام يثير بعض التساؤلات :

ألم يعتمد علم الكلام في أدلته على السمع بجانب العقل مع اختلاف بين الأشاعرة
والمعتزلة في تقديم أيهما ؟ وبأدلة السمع هي الكتاب والسنة .

-
- (١) الفتاوى لابن تيمية ص ١٤٧ هما بعدها .
* نحن لا نتفق مع الإمام الرازي في أن أكثر سعي العالمين ضلال إلا إذا قصد بذلك كل من
افتتن بالعقل وخاض به في غير مجاله .
(٢) أبحاث في التصوف للدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٦٧ مع كتاب المنقذ من الضلال .
(٣) نقلا عن : المفيدة في ضوء القرآن الكريم للدكتور صلاح عبد العظيم ٩/١ .

ولعل المقام يقتضى بعد هذا العرض لتراجع بعض علماء علم الكلام عنه أن نذكر نصيبين للغزالي يتضح من خلالهما موقفه من علم الكلام .

قال الغزالي : " لم يكن الكلام فى حقى كافيا ، ولا لدانى الذى كنت أشكو منه شافيا " (١) ومن هنا اتجه إلى التصوف .

ثم يتحدث فى الإحياء عن منفعة علم الكلام ويذكر أنه لا فائدة منه فى كشف الحقائق ومعرفتها .

يقول الغزالي : " وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه ، وهيهات فليس فى الكلام وفاء لهذا المطلب الشريف . ولعل التخبيط فيه والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف . هذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا .

فاسمع هذا من خبر الكلام ثم قلاد بعد حقيقة الخبرة وبعد التفلفل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين . وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخرى تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود " (٢).

ثالثا : المعتدلون ويمثلهم الأشاعرة وأصحاب هذا الاتجاه يعتمدون على التوسط بين المغالين فى التمسك بظواهر النصوص كالاشباهة والمجسمة ، أو فى التمسك بالعقل كالمعتزلة المؤيدين لدراسة علم الكلام وقضاياها ، وهؤلاء يميزون بين موضوعات علم الكلام وذلك لأن قضايا هذا العلم منها المحمود ومنها ما هو غير ذلك أى المذموم ، وأيضا يميزونه من حيث المشتغلين به والمنوعين من الاشتغال به .

(١) المنقذ من الضلال ص ١٠١ .

(٢) إحياء علوم الدين ٩٧/١ .

فعلم الكلام المحمود هو : المباحث المتعلقة بإثبات الواجب لله - تعالى - وصفاته والنبوة والمعاد على قانون الإسلام . وهذه المسائل أصل العلوم الشرعية وأساسها وهي تفصيل الإيمان بالله - تعالى - وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر على وجه الإيقان والانتقان .^(١)

ومن هنا يتضح أن منهج الإمام الأشعري كما يقول الباحثون منهج وسط بين المغالين إذ يقوم على مسلك النقل والعقل ، فهو يثبت ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من أوصاف لله - تعالى - ورسله واليوم الآخر والملائكة والحساب والعقاب والثواب ويتجه إلى الأدلة العقلية والبراهين المنطقية يستدل بها على صدق ما جاء في القرآن والسنة عقلا بعد الإيمان بها كما هي نقلا ، فهو لا يتخذ العقل حاكما على النصوص ليؤولها أو ينفي ظاهرها ، وإنما يتخذ خادما لظواهر النصوص يؤيدها ويعضدها .^(٢)

فالمباحث المتقدمة لا يعارضها كتاب ولا تقف أمامها سنة ولا مجال لمخالفتها وبالتالي لا حرمة فيه ولا كراهية . بل إن معرفة هذه المباحث على وجه الإجمال فرض عين على كل مسلم ، وعلى سبيل التفصيل فروض كفاية .

ليس هذا فقط بل إن في مباحث علم الكلام حراسة العقيدة على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة وهذه من فروق الكفايات .

وهذا ما ذكره الفزالي عن علم الكلام ومقصوده : " حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة ، فقد ألقى الله - تعالى - إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم . كما نطق بمعرفته

(١) انظر : الفرق الكلامية الإسلامية للدكتور عبد الفتاح المبرسي ص ١٠٨ .

(٢) انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ص ١٦٧ وما بعدها .

القرآن والأخبار . ثم ألقى الشيطان في وسوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة فلهجوا بها وكانوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها ، فانتشأ الله - تعالى - طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف عن تلبسات أهل البدعة المحدثّة على خلاف السنة الماثورة ، فمنه نشأ علم الكلام وأهله . فلقد قام طائفة منهم بما نديهم الله - تعالى - إليه فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة * (١) .

يذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن الاشتغال بعلم الكلام مباح عند الحاجة إليه في إزالة الشكوك في أصول العقائد والثبوت عن الدين ضد شبه المبتدعين وليس فيه حرمة ، ويجب أن يؤخذ منه بقدر الحاجة ، وأن يقتصر فيه على الجلي الظاهر وعدم التعمق في الأبحاث والتعريفات .

أما المذموم من علم الكلام فهو : المخالف للكتاب والسنة* مسائل مسائل لا توافق الكتاب والسنة أو إثبات مسائل على وجه لا يوافق الكتاب والسنة (٢) .

ولذلك ينبه الغزالي إلى الطريق الذي يجب اتباعه فيقول : " فالمعقل مع الشرع نور على نور ، والملاحظ بالعين العور لأحدهما على الخصوص متدل بحبل غرور .

(١) المنقذ من الضلال للغزالي ص ٩٦ وما بعدها تحقيق الدكتور عبد الحلیم محمود .
* لذلك ذهب بعض العلماء نظراً لما عرفوا ما في الكلام من خطر فكرهه إلا ما قام منه على الكتاب والسنة كابن تيمية في عامة كتبه وبخاصة في " براء تعارض العقل والنقل " وكالغزالي في أكثر كتبه وبخاصة في رسالة " إلهام المومنين عن علم الكلام " وكان الوزير في كتابه " ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان " انظر : المدخل إلى دراسة علم الكلام للدكتور حسن الشافعي ص ٣٦ .

(٢) انظر : مفتاح السعادة لطايش كبرى زادة ١٦١/١ ، وتبيين كذب المفتري ص ٣٥١ .

ويقول . فمثال العقل البصر السليم عن الافات والأنواء . ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء ، فأخلق بأن يكون طالب الامتداء المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء . فالمعرض عن العقل مكثفيا بنور القرآن مثال المعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان ، فلا فرق بيه وبين العميان ^(١) .

كما يؤكد هذا المعنى في كتابه " معارج القدس " حيث قال : " إن العقل إن يهتدى إلا بالشرع ، والشرع لم يتبين إلا بالعقل كالأس والشرع كالبناء وإن يغنى أس ما لم يكن بناء وإن يثبت بناء ما لم يكن أس . وأيضا فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع وإن يغنى البصر ما لم يكن شعاع من خارج وإن يغنى الشعاع ما لم يكن بصر فلهذا قال - تعالى - : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى نور بلذنه ^(٢) .

وأیضا فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمدده فما لم يكن زيت لم يحصل السراج وما لم يكن سراج لم يضي الزيت وعلى هذا نبه الله - سبحانه وتعالى - بقوله : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح للمصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور ﴾ ^(٣) فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل ومما متعاضدان بل متحدان ^(٤) .

- (١) الاقتصاد في الاعتقاد ص ٨ مع تقديم وتلخيص في النص .
(٢) جزء الآية (١٥) وجزء الآية (١٦) من سورة المائدة .
(٣) جزء الآية (٢٥) من سورة النور .
(٤) معارج القدس ص ٦٤ .

وهكذا نجد الغزالي قد أفاض في بيان مكانة العقل من الشرع ومكانة الشرع من العقل .

وهذا هو الطريق الذي سار عليه أهل العلم والحق .

وقد ذكر ابن عساكر وغيره عدة نماذج وأمثلة تبين منهج الإمام الأشعري في التوسط بين المغالين سواء أكانت في الصفات أم في غيرها من القضايا الأخرى .

أولا : رأيه في الصفات :

توسط بين المعتزلة الذين نفوا صفات المعاني التي وردت في القرآن الكريم ، وبين المشبهة الذين شبهوا ذاته - تعالى - في أوصافها بصفات الحوادث . حيث أثبت الصفات كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وقرر أنها صفات ليست كصفات الحوادث بل هي صفات تليق بذاته - تعالى - .

ثانيا : رأيه في الرؤية :

ذهبت المعتزلة إلى إنكار رؤية الله - عز وجل - يوم القيامة ، بينما ذهب المشبهة إلى أنه يُرى يوم القيامة مكيفا محدودا . هنا نرى الإمام الأشعري باعتداله وتوسطه يذهب إلى طريقة بينهما وهي أن الله - سبحانه وتعالى - يُرى من غير حلول ولا حدود ولا تكييف كما يرانا هو - سبحانه وتعالى - وهو غير محدود ولا مكيف فكذلك نراه وهو غير محدود ولا مكيف .

ثالثا : رأيه في كلام الحق - عز وجل - :

لقد سلك الإمام الأشعري منهجا أو طريقا وسطا بين المعتزلة والمشبهة فقال إن كلام الله قديم غير مغير ولا مخلوق ولا حادث ولا مبتدع . أما الحروف المقطعة

والأجسام والألوان والأصوات والمحسوسات وكل ما فى العالم من الكيفيات ، مخلوق مبتدع مخترع . بينما قالت المعتزلة إن كلام الله مخلوق محدث مخترع . مبتدع خلقه الله - تعالى - . وذهبت المشبهة إلى أن الحروف المقطعة والأجسام التى يكتب عليها والألوان التى يكتب بها وما بين الدفتين كلها قسيمة أزلية .

رابعاً : رأيه فى الصفات الخبرية :

لقد كان للإمام الأشعرى رأى فى الصفات الخبرية التى وردت عن طريق الشرع مثل قول الحق - عز وجل - : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ ^(١) فبينما ذهبت المعتزلة إلى أن المراد باليد السلطان ، وذهبت المشبهة إلى أن يده يد جارحة . نرى الإمام الأشعرى يقول له يد تليق بذاته الكريمة وليس يد جارحة كأيدينا بل يده يد صفة كالسمع والبصر . ^(٢)

هذا ما جاء فى كتاب " الإبانة " للأشعرى حيث صرح فيه بالتفويض بأن فرض الإيمان باليد ، مع تفويض العلم بها إلى الله - سبحانه وتعالى - ، ووجوب الإيمان بأنها تنافى أيدى المخلوقين . ولكن يبدو أنه رجع عن هذا الرأى الذى أبداه متحمساً لمناقضة المعتزلة حيث جاء فى كتابه " اللمع " أنه قرر التلويل أى تلويل اليد بالقدرة كما فعل المعتزلة وغيرهم . ^(٣)

وقد صرح كثير من كتاب الفرق كالشهرستانى والبغدادى أن للأشعرى قولين فى الصفات الخبرية ومما يدل على قوله بجواز التلويل ما أورده البغدادى

(١) جزء الآية (١٠) من سورة الفتح .
(٢) انظر : تبين كلاب المفترى ص ١٤٩ وما بعدها . والمثل والنحل ص ٩٥ وما بعدها . مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٨ وما بعدها . وتاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٦٦ وما بعدها .
(٣) انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٦٧ .

حيث قال : " وكان شيخنا أبو الحسن الأشعري يقول لابد من أن يكون في كل عصر من يعلم تأويل ما تشابه من القرآن " (١).

إلا أن الأشاعرة لم يلتزموا بمذهب السلف في جميع المسائل حيث خالف متأخرو الأشاعرة في مسألة الصفات الخيرية إذ ذهبوا إلى التحويل دون التفويض . كذلك من الأسس الجوهرية في الخلاف بين الأشاعرة والسلف في قضية الصفات الخيرية : أن الأشاعرة حين يفوضون فإنهم يفوضون في المعنى ، فيقولون : الله مستور على عرشه استواء لا يعلمه إلا هو ، فالاستواء عندهم غير معلوم . وكذلك اليد غير معلومة أما السلف فهم يصرحون بأنهم يعرفون المعنى ، ولكنهم يفوضون في الكيف . فيقولون لله استواء على العرش مثل ما تعرف من استواء الملك على عرشه ، أما كيف ذلك ، فلا يعلمه أحد . بل ذلك مفوض إلى الله - تعالى - ... ويستدلون على ذلك بقول الإمام مالك - رحمه الله تعالى - " الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ... " .

وقد كان لهذا الاتجاه أتباع كثيرون كالباقلائي وإمام الحرمين والغزالي وقد ساروا على نهج الأشعري وكانوا يرون أن العقل في خدمة النص ولا يقدم عليه لذا يمكن القول بأن الصيغة السلفية هي الصيغة السائدة بوجه عام لدى الأشاعرة .

لقد سبق أن أشرت إلى أن أصحاب الاتجاه المعتدل يميزون بين موضوعات علم الكلام إذ منها ما هو محمود ومنها ما هو مذموم . كما أنهم يميزون بين المشتغلين بهذا العلم والممنوعين من الاشتغال به وقد انتهينا آنفاً من تمييزهم بين موضوعات هذا العلم .

(١) أصول الدين للبغدادى ص ٢٢٢ .

والآن نتحدث عن الممنوعين من الاشتغال به فقد ذكر التفتازانى أن هناك أربع طوائف تمنع من الاشتغال بعلم الكلام أى المذموم منه :

الأولى : يمثلها من هو متعصب يقصد به ترويج مذهبه ، فيحرم لذلك تحقيق الحق فى مطالبه .

الثانية : يمثلها من لم يرزق فطنة تفى بتوصيل اليقين ، فنظره فى مبادئه يفضى إلى التشكيك فى قواعد الدين فعليه أن يتسم بسمة العاجز ويتدين بدين المعانز .

الثالثة : يمثلها من هو معوج فى الدين مخطئ طريق اليقين .

الرابعة : يمثلها من يتوغل فى الخوض فى الحكمة فيقع فى ظلمات الفلسفة فريما يعجب بفكره ورأيه والحق من ورائه .^(١)

وعلى ذلك فإن علم الكلام عند هؤلاء ليس محموداً لذاته أو مذموماً لذاته بل هو كما يقول الفزالى : " إن فيه منفعة وفيه مضرة فهو باعتبار منفعته فى وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال ، وهو باعتبار مضرته فى وقت الاستضرار ومحلّه حرام . أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم فذلك مما يحصل فى الابتداء ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ويختلف فيه الأشخاص فهذا ضرره فى الاعتقاد الحق ... " .^(٢)

وله ضرر آخر فى تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة وتثبيتها فى صدورهم بحيث تتبع دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة

(١) شرح العقائد النسفية للتفتازانى ص ١٨ وما بعدها ، الفرق الكلامية الإسلامية ص ١٠٩ .

(٢) إحياء علوم الدين ٩٦/١ وما بعدها

التعصب الذي يثور من الجدل ، ولذلك ترى المبتدع العامى يمكن أن يزول اعتقاده بالاطف فى أسرع زمان إلا إذا كان قد نشأ فى بلد يظهر فيها الجدل والتعصب فإنه لو اجتمع الأولون والآخرين لم يقدرُوا على نزع البدعة من صدره بل الهوى والتعصب ويغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولى على قلبه ويمنعه من إدراك الحق حتى ولو قيل له هل تريد أن يكشف الله - تعالى - لك الغطاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع خصمك لكره ذلك خيفة من أن يفرج به خصمه وهذا هو الداء العضال الذى استطار فى البلاد والعباد وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب .^(١)

ولا شك فى أننا بحاجة ماسة لعلم الكلام بمقدار كثرة الآراء وتنوعها وتضاربها وحيرة العقول فى عصرنا الحاضر هذا العصر المضطرب . ولا يعنى ما حدث من بعض الفرق قديما فى عصور معينة من تجاوزات واختلافات ونزاع أن نقل من قيمته وأهميته فى الدفاع عن قضايا الإسلام والمسلمين وذلك بحكم الاتجاهات المادية الحديثة والتيارات الإلحادية التى يروج بها العالم الآن . ليس هذا فقط بل لرد ما يقوم به المستشرقون والمبشرون لهدم الإسلام .

وسوف نذكر فيما بعد هل نحن فى حاجة إلى علم كلام جديد أم لا ؟ وما الذى ينبغى أن يكون عليه حتى يساير روح العصر الذى نعيش فيه ؟ وما هى الموضوعات التى يجب أن تطرح وتنتزع من هذا العلم ؟

(١) انظر : إحياء علوم الدين للغزالي ٩٦/١ وما بعدها

المبحث الرابع

موقف بعض العلماء من علم الكلام حديثا

المبحث الرابع

موقف بعض العلماء من علم الكلام حديثاً

من علماء العصر الحديث الذين كان لهم موقف من علم الكلام الدكتور عبد الحليم محمود والشيخ محمد الغزالي والدكتور محمود قاسم* - رحمهم الله . حيث إنهم هاجموا علم الكلام بل كانوا يحرمونه .

أولاً : موقف الدكتور عبد الحليم محمود :

إن الناظر في بعض مؤلفات الدكتور عبد الحليم محمود ككتاب " الإسلام والعقل " يستطيع أن يستنتج رأيه من خلال عرضه لعلم الكلام عند الغزالي وأئمة الفقه والمحدثين في هذا العلم .

ف رأى الدكتور عبد الحليم محمود هو نفس ما ذهب إليه الفقهاء والمحدثون من القول بدم علم الكلام وتحريمه .

فلقد أورد الدكتور عبد الحليم محمود رأيه عندما ذكر النصوص التي تنم على الكلام والمتكلمين من كتاب السيوطي " صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام " ثم عقب بقوله : " ونحن نتفق مع الإمام السيوطي اتفاقاً كاملاً في وجهة نظره في هذا الكتاب " (١).

ومن المعروف جلياً أن محتوى هذا الكتاب " صون المنطق " ذم لعلم الكلام والمتكلمين .

* انظر مقدمة كتاب مناهج الأدلة لآين رشد
(١) الإسلام والعقل للدكتور عبد الحليم محمود ص ١٦٥

إذن فرأى الدكتور عبد الحليم محمود هو رأى السيوطى بالنسبة لزم علم الكلام .

وعندما يتحدث الدكتور عبد الحليم محمود عن موقف الغزالي من علم الكلام يبدأ قائلا : إن علم الكلام الموجود الآن هو نفس العلم الذى كان موجودا فى عصر الغزالي لكى يصل إلى نتيجة وهى ذم علم الكلام .

ويبين الدكتور عبد الحليم محمود موقف الغزالي من علم الكلام فيقول : " إذا تحدث عنه الإمام الغزالي فإتما يتحدث حديث الوثائق الخبير ، فقد حصل وطالع كتب المحققين فيه وصنف ما أراد الله أن يصنف ، ثم كان له فى النهاية رأيه الشخصى " (١).

ويهمنا هنا معرفة رأيه الشخصى وذلك أن الغزالي عند عرضه لعلم الكلام استشهد بأراء أئمة السلف فى علم الكلام كالإمام مالك والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم من السلف الصالح .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود عن رأى الغزالي : " وهذا الرأى الشخصى رأى جريئ حاسم يتفق حقيقة مع الوضع الإسلامى الصحيح ، ولكن الظروف أوجدت الإمام الغزالي فى بيئة كان لعلم الكلام فيها - على ما هو عليه - قداسته واحترامه ، فحاول الغزالي أن يعلق رأيه على أساليب مختلفة وعلى أنماط متعددة منها المجامل الرفيق الذى لا يرضى كل الرضا ولكنه يتسامح فى أسلوبه ويجمال فى تعبيراته ويعطف ويشفق ، ومع ذلك يتبين فى وضوح أن الوضع خطأ ، وفى أحيان أخرى تضيق نفسه بالوضع الخاطى فيغضب ويثور ويحسم الأمر فى

(١) المرجع السابق ص ١٦٣ .

أسلوب قوى ، وفى حدة ، ما كان الإنسان يتوقعها من صاحب " الاقتصاد فى الاعتقاد " .

ومن أجل أن يكون رأى الغزالي مقنعا ، ومن أجل أن يأخذ رأيه المكانة التى يريد لها والذوبوع والانتشار الذى يطمح إليه أخذ يستشهد بأراء أئمة السلف فى علم الكلام كالإمام مالك والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم من السلف الصالح الذين تؤمن بسعة علمهم وبإخلاصهم وباتباعهم للنهج الدينى الصحيح .^(١)

ثم يتحدث الدكتور عبد الحليم محمود ويقول الآن نذكر رأيه - أى الغزالي - فى صورته الحاسمة : إنه يتحدث عن علم الكلام فى كتابه النفيس " إحياء علوم الدين " فيقول الغزالي : " وأما منفعتها فقد يظن أن فائدتها كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه ، وهيئات ، فليس فى الكلام وفاء لهذا المطلب الشريف . ولعل التخييط فيه والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف . هذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا .

فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاد بعد حقيقة الخبرة وبعد التطفل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين . وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخري تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود " .^(٢)

ثم يستمر الدكتور عبد الحليم محمود فى حديثه عن مكانة أو مرتبة المتكلم وإيمانه من خلال رأى الغزالي فيقول : " ويرى الإمام - الغزالي - أن المتكلم لا يزيد على العامى إلا فى صنعة الكلام . ولأجله سميت صناعته كلاما .

(١) المرجع السابق ص ١٦٣ وما بعدها
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ١/٩٧

أما إذا تساطعت عن إيمان المتكلمين فإن إيمانهم " ممزوج بنوع استدلال
وبرجته قريبة من درجة إيمان العوام " (١).

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود عن اتجاه الغزالي أيضا إن : " هذا
الاتجاه الذى سار فيه الغزالي إنما هو اتجاه الصوفية على وجه العموم وهو فيما
نرى الرأى الصحيح الذى انتهى إليه الإمام الغزالي بعد تجربة محصنة وخبرة
واعية " (٢).

ويتبين موقف الدكتور عبد الحليم محمود من علم الكلام من خلال عرضه
لآراء أئمة الفقه والمحدثين فى ذمهم لعلم الكلام والمتكلمين حيث يذكر صراحة أنه
يعتز بكونه مع الإمام الشافعى ومالك ، وأحمد بن حنبل ، والثورى ، وجميع
المحدثين .

فيقول : " إننا مع هؤلاء ومهما قيل من آراء أخرى فاننا نكتفى برأى
هؤلاء . ونعتز بأن نكون فى صف الشافعى ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، والثورى
وجميع المحدثين " (٣).

ويعرض الدكتور عبد الحليم محمود لنصوص من كتاب " إحياء علوم الدين "
ليبين رفض الغزالي لعلم الكلام وأن حديثه عنه كان تأريخا ونقلًا .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود : " والقسم الثانى من هذه النصوص
مأخوذ من كتاب " إحياء علوم الدين " لا على أنه رأى الإمام الغزالي ، وإنما على

(١) المرجع السابق .

(٢) الإسلام والعقل ص ١٦٤ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ص ١٧٦ .

أن الإمام الغزالي جامع لمختلف الآراء في موضوع علم الكلام ، فأخذنا منه وجهة نظر خاصة ، أخذناها على اعتبار أن دور الإمام الغزالي إنما هو دور المؤرخ الناقل ليس إلا .^(١)

من خلال ما تقدم نرى أن موقف الدكتور عبد الحليم محمود هو نفس موقف أئمة الفقه والمحدثين في ذم علم الكلام . إلا أنه مع هذا كان له تصور لما ينبغي أن يكون عليه عن طريق الإبقاء على بعض الموضوعات وطرح البعض الآخر كمسألة القدر لكونها من المتشابهة ومسألة الذات والصفات والبحث عن وجود الله .

تصور الدكتور عبد الحليم محمود لما ينبغي أن يكون عليه علم الكلام :

سوف نعرض بالتفصيل لتصور الدكتور عبد الحليم محمود لما ينبغي أن يكون عليه علم الكلام حيث يرى أن علم الكلام قد ابتعد على مر الزمن عن القرآن الكريم واقترب من الفلسفة حتى أنه ليوشك أن يصبح فلسفة عقلية بحتة . وإذا كان له تصور لما ينبغي أن يكون وذلك من خلال أمرين هما : الهدم والبناء وكان يقصد بالهدم المباحث التي يجب أن تطرح وتزول من علم الكلام .

أما البناء فالمراد به : ما يجب أن يتجه إليه أهل هذا العلم .

ولقد استهل حديثه بأن الاختلاف في العقيدة هو السبب في تفرق الأمة الواحدة إلى فرق ومذاهب متعددة ولاشك في أن لذلك آثارا سيئة ونتائج وخيمة . هذا مع أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد بينا أصول العقائد وفروعها .

(١) الإسلام والمقل ص ١٦٥ .

ثم تحدث بعد ذلك عن الموضوعات التي يجب أن تنتزع من محيط الفكر الإسلامي وهي :

١ - مسألة القدر : لأنها من المتشابه . وأن الدين اكتمل وكفانا الله كل ابتداء* وإذا كان الدين كاملاً فما علينا إلا الاتباع ، أما طريقة الاتباع فقد حددها الله في الآية الكريمة* التي سبق أن ذكرناها ، والطريقة إذن أن نتبع الآيات المحكمات في فهم ومعنى وتأييد ، وهي ليست مثار جدل ولا خصومة ، وليست مجال نزاع يحتمل . أو أهواء تتور ، وأن نؤمن بالمتشابه كما ورد ، وألا نتبعه متوليين .

فإن تتبع المتشابه : إنما ينشأ عن القلوب التي تلونت بالزيف والانحراف . وهي التي تتبعه ابتغاء الفتنة ، وتتبعه لتأويله إنما يعلمه الله . ولكن ما هو هذا المتشابه ؟ ... إن المسائل التي نهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الغرض فيها ، والمسائل التي كان الاتجاه العام في عهد الخلفاء الراشدين : من الغرض فيها هي من المتشابه .

فالمتشابه إذن : هو ما تنفر منه الروح العامة للدين الإسلامي في عهده الأول : عهد الرسول - صلوات الله وسلامه عليه ، وخلفائه الراشدين وتتهرج من الغرض فيه* . (١)

ويرى الدكتور عبد الحليم محمود أن مسألة القدر إذا أثبتت في أي وسط مهما كان قليل العدد فإنها تنقسم إلى قسمين : قسم يقول بالجبر ، والآخر يقول

* وهي قول الحق - عز وجل - : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فلما الذين في القلوب زيمغ فتيهعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ الآية (٧) من سورة آل عمران . (١) الإسلام والمقل للدكتور عبد الحليم محمود ص ١٢٦ .

بالاختيار وقد ظهر أثر ذلك لدى اليهود والنصارى حيث إنها فرقت بينهم وجعلتهم
شيعة وأحزابا لذلك : " أراد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - أن يتلافى
انشقاق الأمة بسبب إثارة هذه المشكلة فكان ينهى دائما عن إثارتها وعن الجدل
فيها " (١).

ويستدل على ذلك بحديث رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه وهم يختصمون في القدر .
فكانما يفتأ في وجهه حب الرمان من الغضب . فقال : « بهذا أمرتم أو لهذا
خلقتم ؟ تضربون القرآن ببعضه ببعض . بهذا هلكت الأمم قبلكم » (٢).

فمسألة القدر من المتشابه وقد نهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - من
الخوض فيها ، كما كان للسياسة نور في إبطال هذه المشكلة في البيئة
الإسلامية .

ويرى الدكتور عبد الحليم محمود أن هذه المسألة يجب أن تنتزع كلية من
محيط الفكر الإسلامي ، وأن تنتزع مما يسمونه علم الكلام للوصول إلى إزالة أهم
سبب من الأسباب التي تفرق المسلمين بسبب الاختلاف في العقيدة وبذلك نكون قد
أسهمنا بقسط وافر في سبيل التوحيد .

٢ - مسألة الذات والصفات من الموضوعات التي يجب أن تنتزع من محيط
الفكر الإسلامي ؛ لأن البحث فيها هو هجوم من الإنسان على مقام لا يرقى إليه
وإنه لحق أن كل ما خطر ببالك فإله - تعالى - بخلافه .

(١) المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٢) سنن ابن ماجه ١/٢٢ المقمة باب القدر حديث رقم ٨٥ .

يعمل الدكتور عبد الحليم . حمود في هذا الإطار : " وما من شك في أن البحث في الذات والصفات الإلهية من ناحية الصلة بينهما : توحيداً أو تفخيلاً ، والبحث في الصفات الموهمة للتشبيه نفيًا أو تلويلاً إنما هو تهجم من الإنسان على مقام لا يرقى إليه وهم مقوم ولا خيال متخيل ، وإنه لحق : أن كل ما خطر بباله فإله - تعالى - بخلاف ذلك .

وقد كان من الطبيعي : أن يقدر الباحثون أنفسهم باعتبارهم من البشر حق قدرها ، وأن يقدروا الله حق قدره ، ولو سار الأمر على هذا النسق لما تطاول البشر إلى مقام الله - تعالى - ، ولما تجاوزوا حدودهم . وبالتالي لما كان هناك اختلاف وتنازع واقتراع في موضوع الصفات الإلهية .

ولكن بعض الباحثين لم يلتزموا حدودهم كأكفاد من البشر وغرهم عقلهم وخدعهم شيطانهم فحاولوا بعقولهم أن يفكروا على الله - عز وجل - ما لم ينزل به سلطاناً ، فكانت المشكلة الثانية في علم الكلام - مشكلة الصفات . نتي : ثارت الجدل والخصومة والتفرقة بين المسلمين ، وجعلتهم فرقاً تتباين وتتخاصم ، ويرمي بعضها بعضاً بالانحراف والضلال " (١).

ومنشأ المشكلة هو تعرض الباحثين للكيات التي وردت في القرآن الكريم والتي يومهم ظاهرها التشبيه كاليد والوجه والاستواء ... وكل ما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة كالنزل والصورة والأصابع . إما بالتلويح أو النفي أو التفسير أو الشرح ، ولا زال الخلاف حولها منذ بدايته وحتى الآن بين أنصار الإمام الأشعري وأنصار الإمام ابن تيمية .

(١) الإسلام والعقل ص ١٢٦ .

واقـد نشأ عن هذه المشـكلة مشـكلة أخرى وهـى " خلق القرآن " ومشـكلة
" الصـلاح والأصـلح " .

وهذه المشـاكل دليـل واضـح على عـجز العـقل البـشرى تـجاه العـظمة الإلهية .
ومع الاخـفاق المتتابع فى بـحث هذه المسـألة إلا أن البـشرية لم ترع ولم تتعظ
ولازالت مستمرة فى البـحث تتخبط فيه وتتـنازع وتختصم .

ويرى الدكتور عبد الحليم محمود أن المنهج السليم الحكيم هو موقف السلف
الصالح - رضوان الله عليهم - لأن نزعتهم الدينية السليمة قد هدتهم إلى الموقف
السليم فـ " قدروا الله حق قدره " وقدروا أنفسهم حق قدرها فسلموا من البلبلة
والفرقة والاضطراب وكانوا فرقة واحدة واتخذوا مبدأ أساسيا لهم وقاعدة ٧ شك
ولا مراء فيها وهى قول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ (١) .

ولقد احتـرز السلف عن التشبيه ، كما احتـرزوا عن التـعطيل فهم يثبتون لله
ما أثبت لنفسه من الصفات وينفون عنه ما نفى عن نفسه . وهذا لا يعنى أن هذه
الافـاظ معطلة عن المعنى ، بل لها معنى يلـيق بجلال الله وعظمته وشـعار السلف فى
هذه الكلمات " أمروها كما جاءت " .

ويلخص الفخر الرازى المذهب السلفى فى كلمات موجزة دقيقة كل الدقة
فيقول : " إن هذه المتشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى منها شئ غير
ظواهرها . ثم يجب تفويض معناها إلى الله ، ولا يجوز الخوض فى تفسيرها " (٢)
٣ - البـحث فى وجود الله - تعالى - :

لقد بدأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - الجهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات

(١) جزء الآية (١١) من سورة الشورى .

(٢) أساس التـكديس ص ١٨٢ .

من الأسرار بها بحث لم يبدأ بإثبات وجود الله - تعالى - ، وإنما بدأ بالبرهان على صدقه هو وتحدى العرب في ذلك . كذلك لم يبدأ الوحي بإثبات وجود الله - عز وجل - وإنما بدأ بالقراءة .

وانتهى القرن الهجرى الأول ولم يحاول أى إنسان أن يتحدث حديثا عابرا أو مستفيضاً عن إثبات وجود الله ، وهكذا مضى أكثر القرن الثانى وهذه المسألة ليست موضوع بحث وذلك ؛ لأن وجود الله أمر بدهى لا ينبغي أن يتحدث فيه المؤمنون نفياً أو إثباتاً ولا سلباً أو إيجاباً .

إن وجود الله - تبارك وتعالى - من القضايا المسلمة التى لا توضع فى الأساطير الدينية موضع بحث ؛ لأنها فطرية .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود : " إن كل شخص يحاول وضعها - إثبات وجود الله - موضع البحث إنما هو شخص فى إيمانه بخل ، وفى دينه انحراف فما خفى الله قط حتى يحتاج إلى أن يثبت البشر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ومن المعروف أن الدين الإسلامى لم يجرى لإثبات وجود الله ، وإنما جاء لتوحيد الله . وإذا تصفحت القرآن ، أو التوراة حتى على وضعها العالى ، أو الإنجيل حتى فى وضعه الراهن : فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت فى أى سفر منها مكانة تجعلها هدفاً من الأهداف الدينية ، أو احتلت مكاناً يشعر بأنّها من مقاصد الرسالة السماوية .

والقرآن الكريم يتحدث عن بدهية وجود الله حتى عند نوى العقائد المنحرفة " (١) .

(١) الإسلام والمقل من ١٢٠ .

يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ (١)

وهكذا مضى القرن الأول والقرن الثاني أو أكثره على الفطرة ثم تسالت الفلسفة اليونانية إلى محيط الفكر الإسلامي فافسدت عليه نقاء ؛ لأنها فلسفة وثنية حيث إن مصدرها العقل لا الوحي ، ولكل فكرة تصدر عن العقل وليس عن الوحي في عالم ما وراء الطبيعة أى - عالم العقيدة - فهي فكرة وثنية ؛ لأن عالم العقيدة من اختصاص الحق - سبحانه وتعالى - بينه على لسان رسله - عليهم السلام - فكل تدخل للإنسان في هذا العالم تدخل ليس له شأن به ؛ لأنه اقتحام لساحة محرمة مقدسة لا ينبغي أن يدخلها إلا دخول الساجد الخاشع الخاضع المسلم لما جاء به الوحي الإلهي (٢).

ويرى الدكتور عبد الحليم محمود أن الفلسفة اليونانية وثنية نظرا للمبدأ الذي قامت عليه وهو مبدأ تأليه العقل البشري . وقد أراءت هذه الفلسفة وجود لجاما يعصمها من الخطأ فاخترعت فنا وثنيا آخر هو فن المنطق

وبعد ذلك يلتمس لهذه الفلسفة اليونانية العذر فيقول : " ولقد كانت الأمة اليونانية معذورة بعض العذر ، فما كان في ربوعها دين منزل من السماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة ، وما كان مثلها في ذلك إلا كمثل العصر الجاهلي في الجزيرة العربية : فلجأت إلى العقل وآلهته ، وأخذت تثبت به وتكر فضلت وأضلت " (٣).

ولقد جاء الإسلام تطهيرا كاملا للعقيدة وتزكية تامة للإيمان وأعلن بمجرد

(١) جزء الآية (٦١) من سورة النكبات .

(٢) انظر : الإسلام والعقل ص ١٣٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٣ .

التسمية "الإسلام" الحرب على التدخل البشرى فى دين الله ورسالاته فما
"الإسلام" إلا الاستسلام المطلق لله - سبحانه وتعالى - .

ولقد سئل أحد العارفين عن الدليل على الله .

فقال : الله .

ف قيل له : فما العقل ؟ فقال : العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله .

أما مرحلة البناء عند الدكتور عبد الحليم محمود تتمثل فيما ينبغى أن يكون
عليه علم الكلام بحيث يدور حول :

١ - النبوة فيدور حول إثباتها على وجه العموم ، وإثباتها فى استفاضة على
وجه الخصوص بالنسبة لسيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

٢ - بيان أن الدعوة فى آياتها الحكماء - إنما هى آيات - نات فى صدور
الذين أوتوا العلم ، وأن الذين يرتابون فيها هم المبطلون ، وأن الذين يجحدون بها
هم الظالمون .

ويتعبير آخر يتركز علم الكلام فى الداعى بصورة مستفيضة ، وفى الدعوة
بصورة مجملة .

وهذا المنهج هو الذى اختطه القرآن الكريم .

والآية الكريمة التالية تجمع الجانبين . يقول - تعالى - : ﴿ وما كنت تتلوا
من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ﴾ (١).

هذا فى شأن الداعى ، وتستمر الآيات فيقول الله - تعالى - : ﴿ بل هو

(١) الآية (٤٨) من سورة النكبات .

أهيات بهينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا
الظالمون ﴿١﴾.

وهذا في شأن الدعوة . وهذا المنهج هو منهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتابع فيه القرآن الكريم فإنه - عليه الصلاة والسلام - حين أمر بالجهاد بالدعوة تحدى العرب بصدقه أي أنه - عليه أفضل السلام - كان يبين صدق الداعي .

ولما جاءه عتبة يفاوضه في شأن النزول عن دعوته لم يعمل - صلى الله عليه وسلم - شيئا سوى أنه قرأ عليه صدر السورة الكريمة ، سورة فصلت .

وهذا المنهج هو الذي اتبعه أصحاب الألفاظ الواسعة من البشر في الوصول إلى تعرف الحقيقة عن طريق : حال الداعي ، وقيمة الدعوة (٢).

ثانيا : موقف الشيخ محمد الغزالي من علم الكلام :

إن موقف الشيخ الغزالي هو قبول علم الكلام بل التوسع فيه شريطة أن يكون تصويرا مجردا للمقائد الإسلامية مع إيراد البراهين ورد الشبهات أي علم الكلام في نود النشأة . أما إذا تطرقت إليه المباحث الفلسفية فلا حاجة إليه ويجب نبذه .

ولنذكر ما قاله الشيخ محمد الغزالي في هذا الصدد حيث قال : " وعلم الكلام في ديننا - يصح أن يدرس ، وأن يتوسع فيه عندما يكون تصويرا مجردا للمقائد الإسلامية ، وشرحا سليما لبراهينها وردا للشبهات التي قد تنثار عليها .

(١) الآية (٤٩) من سورة المائدة .

(٢) انظر : الإسلام والمقل من ١٧٧ وما بعدها .

أما ما شاع في هذا العلم من مباحث فلسفية وتكفافية عقلية ، وتوليدات خلقها الفراغ ، وتخمينات أساسها الحدس ، فذلك ما يجب نبذه وتطهير الثقافة الإسلامية منه " (١).

ولذلك يعقب الشيخ محمد الغزالي قائلا : " وقد شَنُّ أئمة السلف حملة شعواء على هذا العلم - من حيث احتقاؤه بهذه القضايا واسترساله في عرضها وغرضها - " (٢).

كما يتحدث الشيخ الغزالي أيضا عن الخلافات الناشئة من علم الكلام فيقول : " كانت هذه المناقشات في الأصل مما لا ينبغي أن يتجاوز حدود المناظرات المنطقية والعلمية والفنية ، ولكننا أقحمنا اسم الله - عز وجل - في مناقشاتنا التي لا معنى لها . فحاول كل فريق منا إسناد الكفر والإلحاد إلى الفريق الآخر " (٣).

ويقول أيضا : " وعفا الله عن أجدادنا فقد أولعوا بذلك . وأعانهم عليه أن النولة الإسلامية كانت سيدة العالم . فلا بأس على رجالها أن يشتغلوا بالترف العقلي ، وأن يحولوا فراغهم من الجهاد في سبيل الله إلى جهاد في هذا الميدان الخطر ، فانشغلوا بأنفسهم عن أعدائهم ، ثم ذهب الرجال وبقي الجدال ، بقي إلى اليوم يهدد وحدة الأمة ، ويهز كيانها " (٤).

ويقول عن الفلاسفة إن كلامهم في أصل الوجود يشبه التخمين والترهات وأن المرجع والملاذ يجب أن يكون للأنبياء - عليهم السلام - : " وقد تكلم الفلاسفة

(١) دفاع عن العقيدة والشرية للشيخ محمد الغزالي ص ١١٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) انظر : عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ٧ " المقدمة " .

(٤) المرجع السابق .

الإلهيون في أصل الوجود كلاما هو إلى التخامين والترهات أقرب منه إلى الداء .
الأصيل المحترم . والحق أن الأنبياء وحدهم هم الذين يزودوننا بالكلام الفصل في
هذه المجالات . وعلينا أن نستمع لهم ، وأن نصرف نهما العقلى إلى موضوعات
ملائمة " (١) .

مما تقدم نستطيع أن نلخص موقف الشيخ محمد الغزالي من علم الكلام
وهو عدم إنكاره له على إطلاقه ، وإنما يتأتى إنكاره له إذا تطرقت إليه المباحث
الفلسفية والتكلفات العقلية حيث إن الفلاسفة أقحموا العقل فيما لا مجال له .
لذلك قال الشيخ الغزالي : " أما ما شاع في هذا العلم من مباحث فلسفية
وتكلفات عقلية ، وترايدات خلقها الفراغ ، وتخمينات أساسها العدم فذاك
ما يجب نبذه وتطهير الثقافة منه .

وقد شُنَّ أئمة السلف حملة شعواء على هذا العلم من حيث احتفازه بهذه
القضايا واسترساله في عرضها وفرضها . ونحن نشارك في هذه الحملة وتظاهر
رجالها بصدق وعزم " (٢) .

فموقفه مأخوذ من الجملة الأخيرة في هذا النص من ناحية مشاركته لأئمة
السلف في حملتهم ضد علم الكلام والمتكلمين ومعروف موقف أئمة السلف منه وهو
ذم علم الكلام والمتكلمين .

هذا ولقد أورد الشيخ محمد الغزالي في كتابه "دفاع عن العقيدة والشرعية"
عدة نصوص تبين موقفه من خلال عرضه لبعض علماء الكلام كالأشعرى والغزالي

(١) دفاع عن العقيدة والشرعية ص ١١٨ .

(٢) المرجع السابق .

في تراجعهما عن علم الكلام حيث قال إن : " الأشعرى ذكر في كتابه " الإبانة " - وهو آخر كتاب ألفه - أنه رجع في عقائده إلى مذهب ابن حنبل . (١)

ويقول أيضا إن " الغزالي رجع إلى مذهب السلف : ذكر ذلك في كتابه " إلبام العوام " وأعرض عن تلك الطرق جملة حتى مات والبخاري على صدره . (٢)
كل هذه النصوص عن الشيخ محمد الغزالي تدل على موقفه من علم الكلام .

إلا أن الشيخ الغزالي بالرغم من موقفه من علم الكلام والمتكلمين ، قد انبرى لبعض افتراءات خاصة بالأديان تناولها المستشرق اليهودي جولاد تسيهر في باب " نمو العقيدة وتطورها " تناولاً ليس فيه الحق بالباطل وتذرع منه إلى اتهام الإسلام بما هو منه براء . كمسألة عدم اعتبار أهمية العقل وعدم سلطانه قبل ظهور المعتزلة فكان للشيخ موقف مما أثاره هذا المستشرق . (٣)

ولنبداً يعرض موجز لبعض افتراءات هذا المستشرق وأمثاله .

١ - إيهام الناس أن الإسلام يستوحش من العقل وأن العلماء يخشون بمنطقه ، وأن المعتزلة هم وحدهم دون غيرهم الذين قادوا الحركة الفكرية الحرة في الإسلام .

يقول جولاد تسيهر : " لقد كانوا - المعتزلة - الأوائل الذين وسعوا معين المعرفة الدينية ، بأن أدخلوا فيها عنصر آخر قيما وهو العقل الذي كان ، حتى ذلك الحين مبعدا بشدة عن هذه الناحية .

(١) التعليم والإرشاد للحلي ص ١٧٠ نقلا عن : دفاع عن العقيدة والشريعة ص ١١٩ .
(٢) شرح الفقه الأكبر للملا علي القاري ص ٥ من بحث الأستاذ علي الطنطاوي بمجلة الأزهر الجزء السادس المجلد ٢٥ عام ١٩٦٢م نقلا عن : دفاع عن العقيدة والشريعة ص ١١٩ .
(٣) انظر ذلك بالتفصيل في كتاب دفاع عن العقيدة والشريعة للشيخ محمد الغزالي .

وقد ذهب بعض رجالاتهم ومعتليهم الأكثر شهرة إلى القول بأن " الشرط الأول للمعرفة هو الشك " وأن " خمسين شكاً * خير من يقين واحد " وهكذا .

ومن الممكن أن ننسب إليهم هذه الفكرة التي ترى ، حسب مذهبهم ، أنه يوجد حاسة سادسة غير الحواس الخمس ، وهي المعرفة بالعقل .

إنهم رفعوا العقل إلى مرتبة القياس والدليل في أمر العقيدة والإيمان ، وإن واحداً من قدامى معتليهم وهو بشر بن المعتز من بغداد مدح العقل مدحاً كبيراً في قصيدة تعليمية في التاريخ الطبيعي حفظها الجاحظ (في بعض مؤلفاته) وفسرها إذ يقول :

| | |
|----------------------|-------------------------------------|
| لله در العقل من رائد | وصاحب في العسر واليسر |
| وحاكم يقضى على غائب | قضية الشاهد للأمر |
| وإن شيئاً بعض أفعاله | أن يفصل الخير من الشر |
| بذي قوى قد خصه ربه | بخالص التقديس والطهر ^(١) |

* وهنا يتسائل الشيخ محمد الغزالي ويقول هل كان الإمام الغزالي معتزلياً حين بدأ تفكيره بالشك ؟ انظر : دفاع عن العقيدة والشريعة للشيخ الغزالي ص ١٢ (الهامش) .

والحقيقة أن الغزالي لم يكن معتزلياً في يوم من الأيام . ولم يبدأ تفكيره من الشك . وإنما كان الشك مرحلة متأخرة من حياته الفكرية ... وشكه كان شكاً منهجياً ، وهو لم يشك في الدين ، ولا في قضايا الدين أصولاً وفروعاً ، ولكنه شك في وسائل المعرفة . سواء كانت حساً أو عقلاً . وانتهى إلى أن هذه الوسائل صحيحة نوعاً ما ، ولكنها ليست مأمونة على إطلاقها . بل قد يعتريها خلل نون وعي من صاحبها ... ولكن الذي لا يعتريه خلل هو المعرفة الإشراقية ... والمعرفة الإشراقية عنده مشروطة بالإيمان والإسلام . فالكافر لا إشراق عنده . ولا إلهام له . وإن كان لديه إلهام فمن الشيطان لا من الرحمن ...

يتضح من هذا أن الشك الغزالي كان شك مؤمن واثق من دينه . ولم يتطرق شكه إلى شئ من الدين لا في أصوله ولا في فروعه ولا في الشارح - صلى الله عليه وسلم - . ولكن الشك كان في الحس والعقل ... ثم كانت نهايته إلى اليقين ...

(١) العقيدة والشريعة ص ٩٠ وما بعدها .

ثم يتحدث جولد تسيهر في موطن آخر عن : " ظهور نزعات متوسطة منذ ابتداء القرن العاشر عملت على استخلاص قليل من المذهب العقلي من كلام أو تراث أهل السنة ، وغايتهم إنجاء الصيغ القديمة من ثوران الملاحظات العقلية .

وتعابير العقيدة السننية المطلقة بشئ قليل تزدان به من المذهب العقلي التي يسير سيرها إلى الرجوع إلى المذهب السننى العقلي ترتبط باسم أبى الحسن الأشعرى المتوفى ببغداد عام ٣٢٤هـ - ٩٣٥ م ، واسم أبى منصور الماتريدى المتوفى بسمرقند عام ٣٣٣هـ - ٩٤٤ م .

وبين هذين المذهبين لا توجد فروق جوهرية ، وإن كان الأول كان يسود في الأقاليم المتوسطة من العالم الإسلامى . بينما كان الثانى مزدهرا في الأقاليم الشرقية وفي آسيا الوسطى .

إن الأمر يتعلق أغلب الزمن بالمجادلات الدقيقة (في بعض المسائل) ومنها مثلا ما إذا كان للمسلم أن يقول : " أنا مؤمن إن شاء الله " وهي مسألة يتّ الحكم فيها تلاميذ الأشعرى وتلاميذ الماتريدى بطريقة متعارضة متضادة ، والكل يستند إلى طائفة من الحجج الكلامية .

وعلى العموم فإن آراء الماتريدى أكثر حرية وعقلية " من آراء زملائه الأشاعرة . فلذلك أدنى إلى المعتزلة من هؤلاء .

ولنذكر مثلا واحدا يقدمه لنا خلافتهم (جميعا : المعتزلة والأشاعرة والماتريدية) في الجواب عن هذه المسألة : ما هو أساس وجوب الإيمان بالله ؟

فالمعتزلة يرون أنه العقل ، والأشاعرة يرون أن هذا يكون ، لأنه واجب علينا
شرعا أن نؤمن بالله .

أما الماتريدية فيقولون إن واجب الإيمان بالله أساسه الأمر الإلهي (أى كما
يرى الأشاعرة) ولكن هذا الأمر يدركه العقل ، أى أن العقل وإن لم يكن المرجع
للإيمان بالله ، فإنه الأداة فى ذلك .^(١)

ثم يطلق الشيخ محمد الغزالي على موضوع التحسين والتقبيح بالعقل
فيقول : " وعرض المسألة بهذا الإيجاز المبتسر فيه إخلال بالموضوع إذ إن أساس
البحث يرجع إلى موقف علماء الكلام من قضية " التحسين والتقبيح العقليين " .^(٢)

وليس هنا مكان شرحها وبسط الآراء المتعارضة فيها .

والذى نؤكد ونوجه النظر إليه أن علماء المسلمين المحققين من سلف وخلف
يرون أن فى بعض الأشياء حسنا أو قبيحا ذاتيين يستطيع العقل معرفتهما ابتداء .

فهو يدرك ما فى العلم والعدل من حسن ، ويدرك ما فى الجهل والجور من
قبح .

لكن ما أكثر وجوه الخلاف بين العقلاء ، وأوسع الثقة بين وجهات النظر فى
شتى الأمور .

إن فى عصرنا هذا فلسفات ونظما شرقية وغربية لا يسد الفجوة بينهما إلا
الدم .

(١) المرجع السابق ص ٩٨ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٧ .

وكلا الفريقين لم يتهم الآخر بأنه فر من مستشفى المجانين !!

ولسنا بصدد انتقاص العقل وفكرته ..

بيد أننا نقول جازمين : إن العقل لا يغنى عن شريعة الله .

وأن لله من عباده مطالب لا تعرف إلا عن طريق النبوة : وأن تفاصيل
المعتقدات والعبادات لا وظيفة للعقل فيها إلا الفقه والتلقى ...

ويبقى أن نسأل " جولد تسيهر " وهو رجل يهودى يشتغل لحساب التبشير
النصرانى ، ويأخذ أجره من وزارات الاستعمار ، أو من هيئات الدعاية المسيحية :
هل هو يرى أن العقل ينقى عن الشرع ، كما يزعم المعتزلة ذلك زعما جزئيا ؟
إن صح لديه ذلك فلا مكان للنبوات كلها ، وسقطت الديانات جملة ، وارتفعت
الثقة بكتاب السماء أولا وآخرها ... " (١)

ثم ينهى الشيخ محمد الفزاري كلامه قائلا : " إننا لا ندافع عن علماء
الكلام ... بيد أن عرض مجادلاتهم بأسلوب فيه غمز للفكر الإسلامى لا معنى له ،
خصوصا إذا تعلق البحث بمسألة تخص الأديان كلها " (٢)

ولرد على افتراء جولد تسيهر فى مسألة أن العقل قبل المعتزلة لم يكن له
سلطان نقول : إن القرآن الكريم لم يعمل من شأن شئ كما أعلى من شأن العقل ،
كما أنه حث الناس على التفكير والتدبر .

(١) دفاع عن العقيدة والشريعة ص ١٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٨ .

ويذكر المعلق^(١) على كتاب " جولد تسيهر " العقيدة والشريعة في الإسلام في الهامش بأن : " القرآن مشحون بتبنيه الناس على التعقل والتفكر ، وكان الفكر قبل المعتزلة سديدا مستقيما فصار معقدا كثيرا " .

ومن الأدلة التي تحت على النظر والتفكر وتعلو من شأن العقل على سبيل المثال لا الحصر .

١ - قوله - عز وجل - : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .^(٢)

٢ - قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ .^(٣)

٣ - قوله - تبارك وتعالى - : ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِيَ الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .^(٤)

لقد روى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال عندما نزلت هاتان الآيتان : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » .^(٥)

(١) الدكتور محمد يوسف موسى وآخرين ص ٩١ .

(٢) جزء الآية (٣) من سورة الرعد .

(٣) جزء الآية (٢) من سورة العنكبوت .

(٤) الآيتان (١٩٠ - ١٩١) من سورة آل عمران .

(٥) أورده الفخر الرازي في تفسيره ٤٥٨/٩ . وكذلك أورده الإمام السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالماثور ١٩٥/٢ وعزاه إلى ابن حميد وابن أبي الدنيا في التفكير وابن المنذر عن عائشة - رضي الله عنها - .

ودوى بلفظ آخر : « ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمل فيها » .^(١)

فللعقل مجاله ولا ينبغي أن نطلق له العنان فيما لا مجال له فيه . خاصة
ما وراء الطبيعة حيث الغيبيات .

لذلك جاء تكفير الغزالي للفلاسفة بناء على إقحامهم العقل في غير مجاله
ودائرة اختصاصه ، وضلال الفلاسفة نتاج من تحكيمهم العقل في مجال
الغيبيات .

ومن ثم ينبغي أن يكون العقل دائما وأبدا خادما وتابعا للنص .

ولقد صور ابن خلدون هذا الأمر خير تصوير عندما قال : « وليس ذلك
بقادح في العقل ومداركه . بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها .

غير أنك لا تطمع في أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحق النبوة ، حقائق
الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طمع في محال ، ومثال ذلك مثال
رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدل على
أن الميزان في أحكامه غير صادق . لكن للعقل حدا يقف عنده ولا يتعدى طوره
حتى يكون له أن يحيط بالله ويصفاته ، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه .
وتقطن في هذا لفط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا وقصور
فهمه واضمحلال رأيه ، فقد تبين لك الحق من ذلك » .^(٢)

ذكرنا أننا التصور الذي ارتآه الدكتور عبد الحليم محمود والشيخ محمد

(١) أورده الفخر الرازي في تفسيره ٤٥٨/٩ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٤ وما بعدها .

الغزالي لكن هناك تعقيداً على هذا التصور ويتمثل في أن علم الكلام بطبيعته له جانبان :

١ - جانب تسجيلي وهو أن علم الكلام يسجل عقائد الفرق المختلفة ورأى كل فريق في القضايا والمشكلات لكي يبين الصواب والخطأ فيها ومن هنا فعملية التسجيل لا خيار لنا فيها .

٢ - جانب دفاعي أو إبداعي أو إنشائي وهو بمثابة ردود أفعال للقضايا المطروحة على الساحة وبالتالي يكون علم الكلام واقعيًا موضوعيًا عندما يناقش القضايا التي أثارت في عصورنا الحديثة كشيوعية ماركس ووجودية سارتر ... الخ وإذا يكون لعلم الكلام دوره في مناقشة هذه القضايا وتقنيدها والرد عليها .

المبحث الخامس

أهمية علم الكلام في العصر الحديث

أهمية علم الكلام فى العصر الحديث

قبل الحديث عن أهمية هذا العلم فى العصر الحديث . أو هل توجد حاجة إليه فى عصرنا الحديث ؟ لابد أن نستهل ذلك بالحديث عن علم الكلام وهل كانت هناك حاجة له وقت ظهوره أم لا ؟

يرى البعض أن المسلمين لم يكونوا بحاجة إلى علم الكلام وقت ظهوره فى العصور السابقة معللين ذلك بما يلى :

١ - أن العقائد ثابتة فى القرآن الكريم ووضحتها السنة النبوية المطهرة .

٢ - لو كان فى علم الكلام هدى ورشاد لتكلم فيه النبى - صلى الله عليه وسلم - والصحابة والتابعون خاصة وأن النبى - عليه الصلاة والسلام - لم يترك شيئاً مما يهم المسلمين فى أمور دينهم إلا وتكلم فيه ، كما أنه بين كل شئ مما يتصل بالمقيدة بياناً شافياً ، ولم يترك لأحد مقالاً فيه .

يذكر الأشعرى أن الأمر لا يخلو من وجهين : " إما أن يكونوا علموه فسكتوا عنه ، أو لم يعلموه بل جهلوه فإن كانوا علموه ولم يتكلموا فيه وسعنا أيضاً نحن السكوت عنه كما وسعهم السكوت عنه ووسعنا ترك الفوضى فيه كما وسعهم ترك الفوضى فيه ، ولأنه لو كان من الدين ما وسعهم السكوت عنه . وإن كانوا لم يعلموه وسعنا جهله كما وسع أولئك جهله ، لأنه لو كان من الدين لم يجهلوه . فعلى كلا الوجهين الكلام فيه بدعة والفوضى فيه ضلالة " (١).

(١) رسالة فى استحسان الفوضى فى علم الكلام للإمام الأشعرى ملحقه بكتاب علم الكلام تعريفه وعوامل نشأته للدكتور عامر النجار ص ٩٥ .

٢ - أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لم يتكلموا في الكلام وليس له أصل عندهم .

يقول الإمام السيوطي في هذا الإطار : " ولو كان في الصحابة - رضوان الله عليهم - قوم يذهبون مذاهب هؤلاء في الكلام والجدال لعنوا في جملة المتكلمين ولنقل إلينا أسماء متكلميهم ، كما نقل أسماء فقهاءهم وقرائهم وزهادهم ، فلما لم يظهر ذلك دل على أنه لم يكن لهذا العلم أصل عندهم " (١).

ولقد ذهب ابن خلدون إلى أنه لم نعد هناك حاجة إلى علم الكلام في هذا العهد لطالب العلم - ويقتصد بذلك عصره - ثم علل ذلك بقوله إن : " الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شائتهم فيما كتبوا وبنوا ، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا ، وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباري عن كثير إيهاماته وإطلاقه ... لكن فائدته في أحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة ، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجاج النظرية على عقائدها " (٢).

ولقد أسرف ابن خلدون في تناوله حين قال لم تعد هناك حاجة إلى علم الكلام نظرا لانقراض الملحدة والمبتدعة . وينبغي ألا نسرف في التناول حيث إنه في كل عصر تظهر بعض المذاهب المنحرفة الضالة التي لا بد من التصدي لها وذلك لا يكون إلا عن طريق علماء الكلام لذا كانت الحاجة ماسة إلى علم الكلام في كل عصر ولكن بشكل جديد يفي بحاجات العصر ويتفق مع معطياته .

ويعلق الدكتور عبد الهادي أبو ريدة - رحمه الله - على هذا فيقول : " لم

(١) صون المنطق والكلام ص ٩٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣١ .

يكن يخطر على بال ابن خلدون ، مع أنه شعر بما كان يجرى وراء جبال البرانس ، من استعدادات لحركات علمية وفلسفية تطورت قرونا حتى أصبحت الحاجة شديدة إلى إقامة العقائد الدينية الصحيحة ، والأخلاق والمعاملات الإنسانية العادلة ، وكذلك التصورات الصحيحة للوجود والكون والإنسان والقيم ، على أسس جديدة تواجه مشكلات العصر الفلسفية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية بحسب مناهج جديدة لإقامة البناء العقلي الأخلاقي للإنسان بحسب حقيقته ومعنى حياته ومصيره .^(١)

لكل ما تقدم ذهب بعض العلماء إلى القول بعدم الحاجة إلى علم الكلام وأسنا معهم فيما ذهبوا إليه على إطلاقه فطالما أنه قد تظهر بعض المذاهب المنحرفة الضالة من حين لآخر فإنه لا بد من التصدي لها ولا يكون ذلك - كما سبق أن أشرنا - إلا عن طريق علماء الكلام لذا الحاجة إليه ماسة في كل عصر وأوان وذلك ، لأن موضوع علم الكلام هو قضايا العقيدة وهذه القضايا ليست آنية وزمانية فحسب بل إنها قضايا عامة لا تخص زمانا بعينه .

وسوف يتضح هذا جليا من خلال عرض أهمية علم الكلام في العصر الحديث .

ثم إذا كان المسلمون ليسوا في حاجة إلى علم الكلام كما يدعى البعض فكيف يتسنى لنا رد طغيان جهمية القرن العشرين وما يليه ؟

لقد كانت الجهمية الأولى تقول : إن القرآن الكريم كلام الله مخلوق ؟

(١) خطة مقترحة لتجديد علم الكلام ص ٢٤ بحث قدم للندوة السنوية للجمعية الفلسفية المصرية بالقاهرة عام ١٩٩١م تحت عنوان " نحو علم كلام جديد " .

أما ،جهمية الحديثة المتمثلة في الاستشراق وأتباعه ، والتبشير وأذنايه ، فإنها تقول ببشرية القرآن - أي أن القرآن مصنوع ومؤلف قام بتأليفه سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو مرآة لأفق خاص من الحياة ، هو أفق الحياة في شبه الجزيرة العربية وفي مكة بوجه خاص (١).

ثم كيف نبتل ونحاجج المذاهب الحديثة الهدامة ؟ وما الوسيلة في الرد على المذهب " الاسمي " الذي يقرر أتباعه - قاتلهم الله - أن لفظ الله لا يوجد له مسمى (٢).

وكيف نحاجج أصحاب المذهب " التجريبي " والذي يعبر عن أصوله كودفيج فيرباخ " وهو فيلسوف ألماني بقوله :

" الله كان فكرتي الأولى

والعقل كان فكرتي الثانية

والإنسان بمحيطه الواقعي هو فكرتي الثالثة والأخيرة " (٣).

ليس هذا فقط بل كيف نحول بين مجتمعنا الذي نعيش فيه وبين الاستماع إلى هذه المذاهب التي تتسرب إلينا عن طريق وسائل الإعلام سواء أكانت مرئية أم مسموعة أم مقروءة ؟

إن أتباع المذهب العقلي يتشبقون ويسمون هذا العصر عصر التنوير * أو عصر الإنسان .

(١) انظر : الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي ص ٤١٧ وما بعدها ، مقدمة شرح المقاصد للتفتازاني للدكتور عبد الرحمن عميرة ص ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٦ .

* من منا لا ينادي بالتنوير ؟! فالتنوير ضرورة تفرضها ظروف العصر ، لكن للتنوير معنى يخالف ما ذهب إليه دعاة كما أن له شروطا يجب توافرها .

ويفسر " وولف " الألمانى التنوير بقوله : " إقصاء الدين عن مجال التوجيه وإحلال العقل محله " .

أما " لوك " الإنجليزى و" فولتير " الفرنسى فإنهما يفسران عصر الإنسان بقولهما : عصر الإله الجديد ويقصدان به العقل الذى استغنى عن آلهة الخرافة والكنيسة .

لقد كانت الباطنية القديمة تقول : إن الله - تعالى - منزّه عن مشابهة المخلوقات ، ولو كان موجودا لأشبه الموجودات ، ولو كان معنوما لأشبه المعنومات ، فهو لا موجود ولا معنوم .

أما الباطنية الحديثة المتمثلة فى عدمية " سيرجى نيكاييف " - اعتدادية " ماركس " وتخريبية " فرويد " وأحفاد اليهودية العالمية التى يمثلها " دارون " فإنها تقول : الدين خرافة ، والرسول مجموعة من الأفاكين ، و" الله " أسطورة الرجعيين ، فقد ذهبنا لتفتش عنه فلم نعثر له على أثر .^(١)

وصدق المولى - عز وجل - إذ يقول : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ .^(٢)

ونرى قوله - تعالى - : ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ .^(٣)

فينبغى علينا لكى نرد على هذه الهجمات الفكرية الشرسة أن نتسلح بما يجب أن يكون حتى نقاوم هذه المستجدات ونرد على المستحدثات التى تطفو

(١) انظر : مقدمة شرح المقاصد للدكتور عبد الرحمن عميرة ص ٤٢ وما بعدها .

(٢) جزء الآية (٥) من سورة الكهف .

(٣) جزء الآية (٤٤) من سورة الفرقان .

على السطح من أن لاخر في مجتمعنا فتفسد الشباب لأنهم لا يعلمون شيئا عنها وبالتالي يقبلون كل ما يعرض عليهم ، لذا يجب أن نجد في علم الكلام وفي طريقة عرض مسائله وقضاياها ، والاهتمام بعرض آراء هذه المذاهب بأسلوب يمكن الشباب وغيرهم من رد مثل هذه الهجمات الشرسة .

ولا نقصد هنا بالجديد تجديد أصول العقائد إذ هي حقائق أزلية أبدية . ولا المنهج ؛ لأنه منهج عقلى يعتمد على المنطق . وإنما المقصود بالتجديد هو تجديد المحتوى والأدلة وعرض القضايا والمسائل بحيث تعتمد الأدلة على العلم والتجربة والواقع خاصة في مجال العلوم الحديثة والكونية والاجتماعية حتى تسير العصر الذي نعيشه .

فقد كان المتكلمون القدامى يعتمدون في أدلتهم على الاستدلال الفلسفى والاكسيمة العقلية . أما طبيعة الأدلة في عصرنا فينبغى أن ندم على الواقع والتجربة والعلم . وقد تحدث أحد الباحثين المعاصرين مبينا طبيعة علم الكلام الجديد وحقيقته فقال : " تتلخص حقيقة علم الكلام الجديد في أنه استجلاء حقائق الدين بالأدلة التي تطمئن الذهن الجديد والمقلية الجديدة ... وتوصل التعاليم الإسلامية بأحدث أساليب الاستدلال الملائمة للعقل الجديد ... فما هو العقل الجديد ؟ إن مدلول هذه الكلمة مدلول مرادف لكلمة العقل العلمى أو العقلية العلمية ... والعقلية العلمية عقلية مهمتها الحقائق " (١).

ورحم الله الدكتور عبد الهادى أبأ ريدة فقد اقترح خطة ارتأاها وذلك عندما

(١) قضية البحث الإسلامى لوحيده خان ص ١٠٦ - ١١٨ التوجمة العربية نقلا عن : الفرق الكلامية الإسلامية للدكتور عبد الفتاح المغيرى ص ١١١ .

تحدث عن مفهوم التجديد وشروطه مبينا قيمة علم الكلام فقد قال : " أما وإن علم الكلام في نشأته وتطوره وتكامله على مر القرون قد أدى مهمته الجلية التي قصد إليها المشتغلون به فإن ذلك لاشك فيه ، ثم إن بناءه الداخلي جاء بناء منطقيا محكما ... وكانت قيمته الحقيقية ترجع خصوصا إلى أنه كان يثبت حقائق كبرى جاء بها الإسلام وجعلها مسائل في محور بحث العقول المؤهلة للتصدي إلى بحث الحق على المنهج الحق .

وعلى هذا لا يكون التجديد خاصا بالأصول الاعتقادية ؛ لأنها " حقائق أزلية أبدية " ولا خاصا بالمنهج ، لأنه منهج عقلى يقوم على المنطق . لكن علم الكلام كما نقرؤه في مصنفاته المتوالية كان يتطور ، من حيث تناول الآراء والمشكلات التي كانت تعرض وتتجدد باستمرار وعلى هذا فإن مهمته في عصرنا كبدية مغلوبة بمقدار كثرة الآراء وتنوعها وتضاريفها وتحير كثير من العقول في عصرنا المضطرب " (١).

ثم يقول : " وإذا كانت قضايا الدين وقواعد الإيمان في المصور السالفة كانت بوجه عام قضايا مقبولة ، بحيث كان المطلوب هو إقامة الأدلة على صحتها فإن قضية الدين والإيمان في عصرنا مطروحة من حيث المبدأ ؛ بين من يقبل ويجتهد في الإثبات والبرهنة ، وبين من يرفض أو يتباعد وقد يعمد إلى محاربة الدين والشرائع المنزلة على أساس دعوى زائفة وتعلق بلوهم تدل على الزيف والجهل بالحقائق الكبرى التي لا يمكن أن يجد العقل الإنساني مناصا من التعرض لها والبحث فيها " (٢).

(١) خطة مقترحة لتجديد علم الكلام ص ٢٥ وما بعدها ، بحث قدم للندوة السنوية للجمعية الفلسفية المصرية المنعقد بالقاهرة عام ١٩٩١م تحت عنوان " نحو علم كلام جديد " .
(٢) خطة مقترحة لتجديد علم الكلام ص ٢٦ بحث قدم للندوة السنوية للجمعية الفلسفية المصرية بالقاهرة عام ١٩٩١م تحت عنوان " نحو علم كلام جديد " .

ثم خلس الدكتور عبد الهادى أبوريده - عليه رحمة الله - إلى أن الطريقة التى ينبغى أن يكون عليها علم الكلام تتمثل فى عدة نقاط هى :

١ - الأخذ بالمناهج الجديدة خصوصا فى مجال العلوم الحديثة العقلية والكونية والاجتماعية ، مع الاستعانة بالمناهج والأدلة الأخرى .

٢ - إعادة طبع هذا التراث ونشر ما لم ينشر منه على الطريقة الحديثة ، مع اشتماله على فهرس تعين الباحثين على دراسة ما فيه .

٣ - طرح الموضوعات والمسائل الفاصلة بعلم الكلام طرعا يتفق مع روح العصر الذى نعيش فيه وتقديم الحلول المناسبة كلما أمكن ذلك .

٤ - أن تتولى هذا العمل هيئات دينية فلسفية علمية فلا يكون مقصورا على الأفراد .

يقول الدكتور عبد الهادى أبوريده فى هذا الإطار : " ولذا لابد من التفكير فى الطريقة والكيفية لإحقاق الحق وإبطال الباطل بالحجة والدليل ليس فقط على المنهج التقليدى المتأثر بل على أحسن ما تحقق فى التراث الكلامى النفيس مع الأخذ بالمناهج الجديدة خصوصا فى مجال العلوم الحديثة العقلية والكونية والاجتماعية ... ولا بأس أن تشمل الخطة معالجة أشياء مما عالجه علماء الكلام فى آخر مؤلفاتهم مثل مسألة الأرزاق والأجال وحل مشكلة القدر التى كثر فيها الكلام ، وأصبحت موضوعات تتحدث فيها الصحف ، وينقل كلام بعض العلماء مبتورا أحيانا ويأخطاء حتى فى بعض آيات القرآن .

وهذا يستدعى شرح المسألة على نحو يجمع بين الحكمة فى التدبير الإلهى وبين مصلحة الإنسان الحقيقية ، دون تنصل من وجوب العمل والاجتهاد فى الكسب الحلال الشريف ، وتربية المسلم على عدم التهالك على متاع الدنيا الزائف الذى

صار الكل يجرى وراءه ، وكلما جدت أنواع الترف جد الناس فى الجرى وراءها ،
مع أن الترف داء حقيقى للإنسان والحضارات والأمم * (١).

هذا وإنه مما تجدر الإشارة إليه أن يقدم علم الكلام بصورة سلسلة ميسرة
للمؤمن المعاصر وذلك باستبعاد الكثير من التعريفات والتفصيلات التى زادت تعقيدا
وبذا يخلص العلم من هذه التعقيدات التى تجعله عسير الفهم صعب المثال .

وما دمنا قد تحدثنا عن أهمية علم الكلام وبيننا أن الحاجة ماسة إليه فى كل
عصر فلا بد أن نذكر أنه يوجد فى العصر الحديث من الباحثين * - وعلى وجه
التحديد فى نهاية النصف الثانى من القرن العشرين - من يقلل من أهمية هذا
العلم ، ويرى أنه لم يعد يفى بمتطلبات الإنسان المعاصر ، وأنه فشل فى أداء
مهمته ، كما أنه كان سببا فى فشل الأمة وتفرقها أحزابا وشيعا .

ومن ثم رفض هذا العلم رفضا كليا شمل أسمائه وتعريفه وموضوعه
ومرتبته وأهم من ذلك كله أنه أنكر فائدته وثمرته إلى غير ذلك من الأمور .

ولما كان هذا الكلام ليس صحيحا فقد تولى الرد عليه الدكتور عبد المعطى
بيومى وفند آراءه وبين ما يجب الإبقاء عليه وما يجب استبعاده فعلى سبيل المثال
من الأمور التى تستبعد الأمور العامة كالجوهر والعرض والوجود والعدم وغيرها .
حيث إن علم الكلام لن يخسر كثيرا إذا ما تم استبعادها وإن احتاج إلى بعض
منها لمعرفة بعض مفاهيمه فإنه سيجدها فى العلوم الفلسفية . وهذه الأمور ستكون

(١) خطة مقترحة لتجديد علم الكلام ص ٣٦ ، ٣١ . بحث قدم للنوبة السنوية للجمعية الفلسفية
المصرية المنعقد بالقاهرة عام ١٩٩١م تحت عنوان " نحو علم كلام جديد " .
* هو حسن حنفى فى كتابه " من العقيدة إلى الثورة " والذى يقع فى خمسة مجلدات وقد تولى
الرد عليه وفند آراءه الدكتور عبد المعطى بيومى تحت عنوان " حسن حنفى بين العقائد وعلم
العقائد " ضمن كتاب " جدل الأنا والآخر " ولمعرفة المزيد من التفصيل يرجع إلى هذين
الكتابين .

مفاتيح لدراسة كثير من الفلسفات التي تتحدث عن الحرية الإنسانية مما يجعله ضروريا لدراسته في علم الكلام الجديد .

ومنا يرد تساؤل هل سيتجاوّل علم الكلام الجديد وهو يؤصل للحرية الإنسانية دراسة فلسفة كاعلة هي الفلسفة الوجودية مع أنها تقوم على فلسفة الوجود والعدم ، وجوهر الوجود بالمقارنة مع مفهوم الإسلام في هذه الأمور .

لاشك أننا بحاجة في علم الكلام الجديد إلى الاستعانة ببعض الأمور لكن ليس بالقدر الذي كانت عليه في كتب علم الكلام القديم . لأن لكل وقت ظروفه ومقتضياته .

وعن طريق بناء الأمور العامة وبقاء موضوع النبوات وموضوع الذات الإلهية من حيث الصفات والنظر في هذه الموضوعات نظرة جديدة تجمع بين تأصيلها العقلي كما ورد في الكتب القديمة ، وتأصيلها الواقعي في حياتنا المعاصرة يكون علم الكلام قد أتى ثماره وواكب الحياة المعاصرة .

وعلى ذلك تكون إعادة بناء علم الكلام لا تعني استبداله فبجانب الحديث عن التوحيد والنبوة والمعاد يكون الحديث عن الحرية والمساواة* ... الخ ، لأنه بدون الموضوعات السابقة سننفصل عن التراث ونفقد الوجه والهادي وسط أمواج العصر .

فالواجب علينا نحو التراث أن نستلهمه لا أن نستبدله وأن نبني عليه لا أن نهدمه وأن ننطلق منه فلا نعطي له ظهورنا ، وأن نتخذ من الإيمان الواعي به حاضرا آمنا ومستقبلا زاهرا مشرقا .

* وينبغي أن يضاف لعلم الكلام مبحث جديد تحت عنوان " مقتضيات العقيدة " يكون محوره ما يجد على الساحة من قضايا وموضوعات وآراء وحينئذ يكون لعلم الكلام باع فيه بالعرض والأخذ بالرد ومناقشة كل الموضوعات المتصلة به وإيجاد الحل لها ومن ثم يزوي علم الكلام ثماره .

وبعد ...

فهذا هو جهد متواضع أقدمه للقارئ - على استحياء - فإن كان هناك
توفيق فمن الله وحده . وإن كانت هناك ثغرات أو هفوات فالكمال لله وحده إذ
القصور والخلل من شأن البشر . ولا يخلو كلام من كلام إلا كلام سيد البشر .

ومن ذا الذي ترضى سجاياء كلها كفى بالمرء نبلا أن تعد معاييه

ورحم الله القاضى الفاضل بن عياض المتوفى سنة ٥٩٦ هـ فقد قال فى
مثل هذا المقام فى إحدى مكاتباته إلى العماد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ :
« إنى رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا فى يومه إلا قال فى غده أو بعد غده
لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل
ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقض على
جملة البشر » .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

ثبت المراجع

- القرآن الكريم .
- كتب التفسير وعلومه .
- كتب الحديث .
- كتب أصول الفقه .
- كتب اللغة .
- ١ - الإرشاد إلى قواطع الأدلة لإمام الحرمين الجويني حققه وعلق عليه د/ محمد يوسف موسى وعلى عبد المنعم عبد الحميد - مكتبة الخانجي ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م .
- ٢ - الإسلام والعقل للدكتور عبد الحليم محمود - دار المعارف - الطبعة الثانية .
- ٣ - الاعتقاد على مذهب السلف لليهقي - مكتبة السلام العالمية .
- ٤ - الاختصار في الاعتقاد للغزالي حققه محمد مصطفى أبو الملا - مكتبة الجندي .
- ٥ - إحصاء العلوم للفارابي حققه وقدم له وعلق عليه د/ عثمان أمين - دار الفكر العربي الطبعة الثانية ١٩٤٩م .
- ٦ - أساس التقديس في علم الكلام للفخر الرازي - مكتبة مصطفى البابي الحلبي .
- ٧ - إشارات المرام من عبارات الإمام لأحمد البياضي الحنفى حققه وعلق عليه

- د/ يوسف عبد الرزاق - مكتبة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الأولى
١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م .
- ٨ - أصول الدين لعبد القاهر البغدادي - دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة
الثالثة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- ٩ - البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان لعباس بن منصور الحنبلي تحقيق خليل
أحمد الحاج - دار التراث العربي - الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
- ١٠ - تاريخ الفرق الإسلامية للدكتور علي مصطفى الفرابي - محمد علي صبيح .
- ١١ - تاريخ الفلسفة العربية لحنا الفاخوري و خليل الجر - دار الجيل بيروت -
الطبعة الثامنة .
- ١٢ - تاريخ الفلسفة الإسلامية للدكتور ماجد فخرى ترجمة د/ كمال اليازجي -
الدار المتحدة للنشر طبعة ١٩٧٤م .
- ١٣ - تاريخ المذاهب الإسلامية لمحمد أبي زهرة - دار الفكر العربي .
- ١٤ - تبين كذب المقتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري لابن عساكر الدمشقي -
دار الكتاب العربي - نشره القدس ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- ١٥ - تجديد التفكير الديني في الإسلام لمحمد إقبال ترجمة عباس محمود -
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥م .
- ١٦ - تحفة المريد على جوهرة التوحيد لإبراهيم البيهقي - طبعة ١٣٩٢هـ -
١٩٧٢م .

- ١٧ - تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للدكتور مصطفى عبد الرزاق - لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الثالثة .
- ١٨ - تلييس إبليس لابن الجوزي بدون ناشر .
- ١٩ - تيارات الفكر الإسلامي للدكتور محمد عمارة - دار المستقبل العربي - الطبعة الأولى ١٩٨٣ م .
- ٢٠ - توضيح العقائد النسفية شرح وتحليل د/ سليمان خميس - مطبعة دار نشر الثقافة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥ م .
- ٢١ - التبصير في الدين لأبي المظفر الاسفراييني تحقيق كمال يوسف الحوت - عالم الكتب ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م .
- ٢٢ - التعريفات للشريف الجرجاني - دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م .
- ٢٣ - التفكير الفلسفي الإسلامي للدكتور سليمان دنيا - مكتبة الفانجي - الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧ م .
- ٢٤ - جدل الأنا والآخر إعداد وتقديم الدكتور أحمد عبد الحليم عطية - مدبولي الصغير .
- ٢٥ - إجماع العوام عن علم الكلام للفزالي نشره محمد علي عطية الكتبي - مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٥٠هـ - ١٩٣٢ م .
- ٢٦ - حقيقة الخلاف بين المتكلمين للدكتور علي عبد الفتاح المغربي - مكتبة وهبة - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤ م .

- ٢٧ - حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - للدكتور محمد حسين هيكل - دار المعارف - الطبعة الحادية عشرة .
- ٢٨ - الخوارج للدكتور مصطفى حلمي - دار الأنصار بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .
- ٢٩ - الخوارج والشيمة ليوليوس فلهوزن ترجمة د/ عبد الرحمن بنوى - وكالة المطبوعات بالكويت - الطبعة الثالثة ١٩٧٨م .
- ٣٠ - دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين للشيخ محمد الفزالي - دار الكتب الإسلامية - الطبعة الخامسة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- ٣١ - دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي للدكتور حسام الدين الألويسي - دار الشئون الثقافية العامة بغداد ١٩٩٢م .
- ٣٢ - درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية تحقيق د/ محمد رشاد سالم - دار الكتون الأدبية .
- ٣٣ - رسالة التوحيد لمحمد عبده تحقيق محي الدين عبد الحميد - مكتبة محمد علي صبيح ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .
- ٣٤ - زاد المعاد لابن القيم - دار الكتب العلمية بيروت .
- ٣٥ - شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار حقهه وقدم له د/ عبد الكريم عثمان - مكتبة وهبة - الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .
- ٣٦ - شرح العقائد النسفية للتفتازاني - القاهرة ١٤٥٨هـ .

- ٣٧ - شرح العقيدة الطحاوية للطحاوي تحقيق د/ عبد الله التركي - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .
- ٣٨ - الشخصيات الإسلامية لعبد اللطيف أحمد داكليكن - الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
- ٣٩ - صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام لجلال الدين السيوطي نشره وعلق عليه د/ سامي النشار - مكتبة الخانجي - الطبعة الأولى .
- ٤٠ - الصديق أبو بكر للدكتور محمد حسنين هيكل - دار المعارف - الطبعة السادسة .
- ٤١ - عبد الله بن سبأ لمرتضى العسكري - دار الكتاب العربي - الطبعة الثانية ١٣٨١هـ .
- ٤٢ - عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي - دار الكتب الحديثة .
- ٤٣ - علم الكلام وبعض مشكلاته للدكتور أبي الوفا التفتازاني - دار الثقافة - طبعة ١٩٨٧م .
- ٤٤ - علم الكلام تعريفه وعوامل نشأته للدكتور عامر النجار - دار المعارف - الطبعة الأولى ١٩٨٥م .
- ٤٥ - العقيدة الإسلامية أصولها وتأويلها للدكتور محمد عبد الستار نصار - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م .
- ٤٦ - العقيدة الإسلامية في ضوء النقل والعقل والقلب للدكتور عبد السلام محمد عبده - دار الطباعة المحمدية - الطبعة الأولى .

- ٤٧ - العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع للدكتور محمد بيجار - دار الكتاب اللبناني - الطبعة الرابعة ١٩٧٣ م .
- ٤٨ - العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر نقله إلى العربية د/ محمد يوسف موسى - دار الكاتب المصري ١٩٤٦ م .
- ٤٩ - العقيدة في ضوء القرآن الكريم للدكتور صلاح عبد العليم - مكتبة الأزهر - الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ٥٠ - فضل علم السلف على الخلف لابن رجب الحنبلي - مؤسسة قرطبة السلفية .
- ٥١ - الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي حققه طه عبد الرؤف سعد مؤسسة الحلبي .
- ٥٢ - الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم - مكتبة السلام العالمية .
- ٥٣ - الفرق الكلامية الإسلامية للدكتور على عبد الفتاح المغربي - مكتبة وهبة - الطبعة الثانية ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .
- ٥٤ - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي - مكتبة وهبة - الطبعة الثانية عشر ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .
- ٥٥ - الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب للدكتور عبد المعطي محمد بيومي - دار الطباعة المحمدية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م .
- ٥٦ - قواعد التأييد في عقائد التوحيد لأحمد الحلبي - مكتبة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الأولى ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م .

- ٥٧ - قواعد العقائد للغزالي - مجمع البحوث الإسلامية طبعة ١٩٧٠ م .
- ٥٨ - القرآن والفلسفة للدكتور محمد يوسف موسى - دار المعارف - الطبعة الرابعة .
- ٥٩ - في علم الكلام للدكتور أحمد محمود صبحي - مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية - الطبعة الرابعة ١٩٨٢ م .
- ٦٠ - في نور العقيدة الإسلامية للدكتور محمد سيد أحمد المسير - دار الطباعة المحمدية - الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م .
- ٦١ - كتاب الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون - دار إحياء التراث العربي بيروت - الطبعة الثالثة .
- ٦٢ - كشاف اصطلاحات الفنون لمحمد علي التهانوي - دار صادر بيروت .
- ٦٣ - مدخل لدراسة علم الكلام للدكتور سامي عفيفي حجازي - دار الطباعة المحمدية - الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .
- ٦٤ - المدخل إلى دراسة علم الكلام للدكتور حسن محمود الشافعي - مكتبة وهبة - الطبعة الثانية ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .
- ٦٥ - مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي - دار العلم للملايين - الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م .
- ٦٦ - معارج القدس للغزالي حققه محمد مصطفى أبو العلا - مكتبة الجندی .
- ٦٧ - مفتاح السعادة ومصباح السيادة لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة - دار الكتب الحديث .

- ٦٨ - مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري تحقيق محيى الدين عبد الحميد -
النهضة المصرية - الطبعة الثانية ١٢٨٩هـ - ١٩٦٩م .
- ٦٩ - مقدمة ابن خلدون - طبعة دار الشعب .
- ٧٠ - من العقيدة إلى الثورة للدكتور حسن حنفي - مكتبة مدبولي .
- ٧١ - المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا - دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢م .
- ٧٢ - المقاصد لسعد الدين التفتازاني تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة - عالم
الكتب - الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .
- ٧٣ - الملل والنحل للشهرستاني بهامش الفصل في الملل والأهواء والنحل - مكتبة
السلام العالمية ونسخة أخرى طبعة الأنجلو المصرية .
- ٧٤ - المنقذ من الضلال للغزالي - دار الكتب الحديثة .
- ٧٥ - النية والامل لأحمد بن يحيى المرتضى صححه توما ارتلد - طبعة دار
المعارف النظامية بجيدر آباد ١٣١٦هـ .
- ٧٦ - المواقف للإيجي - مكتبة المتنبى . ونسخة أخرى مطبعة السعادة - الطبعة
الأولى ١٣٢٥هـ .
- ٧٧ - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور على سامي النشار - دار
المعارف - الطبعة الثامنة .
- ٧٨ - النبوات لابن تيمية صححه محمد حامد الفقي - مكتبة السنة المحمدية .

الفهرس

رقم الصفحة

الموضوع

| | |
|-----------|--|
| ٧ - ٥ | تقديم |
| ٤١ - ١١ | المبحث الأول : مبادئ علم الكلام . |
| ٩٨ - ٤٥ | المبحث الثاني : نشأة علم الكلام وتطوره . |
| ١٤٠ - ١٠١ | المبحث الثالث : موقف علماء الأمة من علم الكلام قديما . |
| ١٦٥ - ١٤٣ | المبحث الرابع : موقف بعض العلماء من علم الكلام حديثا . |
| ١٧٨ - ١٦٩ | المبحث الخامس : أهمية علم الكلام فى العصر الحديث . |
| ١٨٧ - ١٨٠ | ثبت المراجع . |
| ١٨٨ | الفهرس . |

تم بحمد الله

رقم الإيداع
٩٨ / ١٦٥٢٢
الترقيم الدولى
977 - 03 - 0536 - 7